

أديب أبي ضاهر

عادات الشعوب وتقاليدها



دار الكتاب العربي
دار الشواف للنشر

أديب أبيضا

عادات الشعوب وتقاليدها

دار الشواف للنشر

دار الكاتب العربي

تمهيد

لكل شعب من شعوب العالم تقاليده وعاداته، تميزه عن باقي الشعوب، وكثيراً ما تكون هذه العادات ولادة حكايات شعبية، أو أساطير يتناقلها الأحفاد عن الأجداد، ويتمسكون بها خوفاً من ضياعها في مناهات التقدم والحضارة.

تختلف التقاليد بعضها عن بعض، وإن نجد للموسيقى مميزات خاصة ومشاركة لكافة قبائل وجماعات البيغمي، (لديهم مهارة ومواهب نادرة في التعبير الموسيقي)، لا يمكن أن نجد ذلك عند بقية القبائل، بما في ذلك الشعب في الأصوات والنغمات الشديدة التعقيد.

ولا يقتصر الرقص والموسيقى على الاحتفالات والمناسبات لدى قبائل البيغمي، بل يلعبان دوراً أساسياً في حياتهم اليومية، بالإضافة إلى الحكايات والأساطير، التي تشكل أدباً شعبياً شديد الغنى، وعنصراً مهماً من تراثهم الحضاري.

أما اللغة عند قبائل الشمال التايلندي فمزيج من لهجات متعددة، كما أن بعضاً من هذه الجماعات لم يعرف الكتابة مطلقاً، وتقتصر اللغة على التقاليد الشفهية التي تنتقل من جيل إلى جيل، ولديهم أسطورة تفسر غياب الكتابة، وهي أن النصوص القديمة، كانت

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٩٣

مكتوبة على جلود الثيران. وتعرضت هذه القبيلة لغزوات متعددة، وفي أحدها أكل الغزاة الجلود، لاعتقادهم أنهم يحفظونها، أو يستزيدون معرفة من خلال ذلك.

ومن عادات سكان مدغشقر نبش عظام الاموات من القبور، وحملها بعناية، والرقص بها، وإقامة الولائم لهذه المناسبة. ويعتقد السكان أن في هذا اليوم تتلاقى أرواح الموتى بأرواح الأحياء، وبالتالي من مغزى هذه الاحتفالات: أن الموت ليس نهاية الإنسان.

ويعتقد سكان سيرى لانكا أن القمر لا يهبط على الأرض، لكن الناس يتسلقون إليه على ظهور الفيلة، ويقطعون في خلال ساعات قصيرة حوالي ٤٠٠ ألف كيلومتر، ويحدث هذا في منتصف شهر "أيزالا" القمري وهو الذي يقع بين آخر تموز (يوليو) وأول آب (أغسطس).

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الاحتفالات قديمة، ابتدعها في القرن الثامن عشر الملك "كيرتي سري"، ومنذ ذلك الحين تغرق "سيرى لانكا"، ولمدة ١٥٠ ساعة متواصلة بالغناء ورش الزهور، وللهنود أعياد مثل: عيد الذرة الخضراء، ويعتقدون بالكثير من الخرافات. فهم يحذرون ذكر اسم الهر الوحشي على مسامع أطفالهم، وكذلك ذكر فأرة الحقل، لاعتقادهم أن ذكر واحدة منهما يؤدي إلى مرض الأطفال وموتهم.

وأهل جزر أولاند يحتفلون كل عام "بأيوم البحر" يرقصون ويغنون، وهذه العادة مأخوذة عن أجدادهم، إذ كانت سفنهم تجوب البحار بحثاً عن الصيد الوفير، وكثيراً ما كان البحر يغضب فيبتلع عدداً منهم، وعند الغضب، كان عليهم أن يقدموا له الأشخاص ليهدا ويرضى.

وتكثر الأساطير والحكايات الشعبية في تايوان، ومنها: أن "التنانين" كانت منذ عهد بعيد تتواشب وهي ترقص وتغني وتقلب في صخب رمال القاع، التي منها أقامت جزيرة على شكل سمكة أسطورية ملونة. لذلك يحتفلون كل عام "بأيوم التنين".

... بالإضافة إلى العادات الكثيرة التي يتحدث عنها هذا الكتاب، كاشفاً الكثير مما خفي عن الناس، محاولاً جمعها خوفاً من ضياعها، بعد كثرة التأويلات في شأنها.

عادات القبائل

قبائل البوندو

تعيش قبائل "البوندو" في ولاية "أوريسا" في جمهورية الهند، التي تمتد في الجنوب الغربي، على مسافة ٥٠٠ كيلومتر جنوب مدينة كالكوتا. وتضم ولاية "أوريسا" العدد الأكبر من السكان الذين ينتمون إلى القبائل، حيث تعيش حوالي ١٥ قبيلة.

يعتمدون لغة خاصة بهم، تختلف كلياً عن اللغات المعتمدة في الهند، إذ ترجع جذورها إلى العصور الحجرية، وبالتالي فإن لهم عاداتهم الخاصة، المختلفة تمام الاختلاف عن عادات الهنود.

النساء في قبيلة البوندو هن اللواتي يعملن في فلاحه الأرض وحصدها، وصناعة الأدوات والحلي. ويذهبن إلى السوق في أقرب قرية، حيث يجلسن، بعيداً عن النساء الأخريات اللواتي يرتدين الساري، ويتم العقايضة، فتحصل نساء البوندو على النفط والسمك المجفف، مقابل حبوب القول والأرز والبندورة. أما الرجال، فيقفون بعيداً يراقبون.

يستخدم الرجال القوس والفأس في اصطليادهم للشعالب والغزلان. وكانوا أساساً من المحاربين. أما "بوندو" فليس اسم

شعبهم الحقيقي، بل هو "ريمو"، وهم مثل جميع الشعوب الأخرى، يطلقون على أنفسهم تسمية تعني في لغتهم "الإنسان".

من العار أن يموت الرجل من جراء مرض أو حادث، ذلك أن كرامته تفرض عليه أن يلاقي حتفه في خلال معركة. ويتراوح عدد البوندو اليوم بين ٤٥٠٠ و ٥٠٠٠ نسمة، يتوزعون على ثماني قرى.

قرى البوندو منتشرة على مرتفعات "الغات" في ولاية الأوريسا، ويتخلى البوندو مؤقتاً عن أسلحتهم، عندما يغادرون قريتهم ليتوجهوا إلى الأسواق. الرجال لا يتميزون كثيراً من ناحية اللباس عن رجال القبائل الأخرى، أما نساء البوندو فيتمتعن بأناقة فريدة، ولباسهن مكوّن أساساً من الزينة والعلّي، من الرأس المزين بأطواق من الخرز، إلى أطواق العنق ذات اللون الفضي.

يمتاز شعب البوندو بالشجاعة، الاستقلالية، حس الحرية والمساواة، الاجتهاد في العمل، المرح، إضافة إلى فرادتهم، وهم متفائلون وانفعاليون وخطرون، يعيشون في تجمعات من البيوت المبنية داخل سور، وفيها مكان اسمه "سينديبور"، وهو مخصص للتشاور بين الرجال. (دائرة من الحجارة المسطحة تحت ظل النخيل).

شهر نيسان (ابريل) مخصص للصيد، ويجوب الصيادون الأدغال من دون توقف. وقديماً كانوا يعودون بصيد وفير من الغزلان والضباع والطواويس والفهود. أما اليوم، وبسبب تقلص مساحة الغابة على حساب الأراضي الزراعية، فكثيراً ما يعود البوندو من دون أية طريدة.

يرفض البوندو أية سلطة عليهم، فالمساواة عندهم شيء طبيعي

أن من ناحية السلطة أو من ناحية الثروة، وجمع البيوت متشابهة، لكن هناك شخص يدعى "نايكو" وهو بمثابة منسق وإذا كان يترأس أحياناً المداولات الصباحية في السينديبور، فلا يعني ذلك أنه يستطيع إصدار الأوامر، وفي أحسن الحالات، يتمتع النايكو ببعض الاحترام. لذلك فقليلون هم الذين يتجروّون على مخالفة أوامره.

البوندو من الشعوب الآسيوية، التي لم تتأثر أبداً بالثقافة الهندوسية. متعالون، معتدون بأنفسهم، يحتقرون السلطة مهما كان مصدرها.

قبائل الدوغون

يعيش "الدوغون" في مالي، في القسم الجنوبي الغربي من تعرج مجرى نهر النيجر، ويتحدرون من فرع من "الكيتا"، وينتشرون في منطقة جبلية تعرف باسم صخور "باندياغارا".

يعتقد أن الدوغون أتوا من منطقة "ماندي"، جنوبي غربي جبال باندياغارا. وكانت "ماندي" في خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، مركز امبراطورية "الكيتا"، المعروفة باسم امبراطورية مالي.

تنقسم لغتهم إلى أكثر من عشر لهجات، وتصنف كلغة من لغات الفولتا، بالإضافة إلى لغة سرية هي "السييمي سو" والتي تستعمل في الاحتفالات فقط.

منطقة صخور باندياغارا، هي منطقة جافة، وبسبب قصر فصل الأمطار، الذي لا يزيد عن أربعة أشهر في السنة، يضطر الدوغون إلى حفر أحواض صغيرة لجمع المياه تحسباً للفصول الجافة. وتستعمل هذه المياه لري الأراضي الزراعية.

انتاجهم الزراعي يتضمن الذرة والارز والبصل وبعض انواع الخضار، ويربون الخراف.

بيوتهم مبنية من الحجارة، او من اللبن المصنوع باليد. وهي ذات شكل مربع، وتطل الغرف على باحة داخلية. يسكن رب العائلة وكبيرها مع عائلته في بيت كبير، له اكثر من دور. يصعد اليها بواسطة سلم خشبي مصنوع من غصن متفرع، تزين واجهة البيت بشمانين كوة ترمز الى الاسلاف الثمانية الاوائل وسلالتهم.

يبنى رب العائلة الى جانب بيته، الاهراءات او خزانات الحبوب ذات السطح المخروطي المغطى بالقش.

على صعيد التنظيم السياسي، يترأس مجلس الشيوخ ويدير الشؤون العامة شخص يدعى "الهوغون"، ولا تتركز سلطته المعنوية على القوة. وهو بمثابة القاضي، يصدر الاحكام التي تتراوح بين العقاب والنفي المؤبد.

ويتكون مجتمع الدوغون من جماعات متكاملة، منها: المطلعون على الاسرار، الرجال، النساء، الاطفال، المزارعون، والجماعة المنتمية الى الطبقات التي تتكون من جميع الذين لا يزرعون، ولا يعملون في الارض، وهم الصناع العاملون في الحديد والخشب والجلد. ويمنع هؤلاء من الزواج من طبقة المزارعين، ويعيشون في احياء خاصة بهم. يتزوجون من بعضهم بعضاً.

قبائل البيغمي :

يشكل البيغمي شعباً افريقياً، يسكن بقالبيته في ادغال افريقيا الوسطى الواسعة. وتعود اولى الدلائل على وجودهم الى نحو العام ٢٤٠٠ قبل الميلاد. ويعيشون ضمن مجموعات تتراوح بين

عشرة وخمسين شخصاً. بحسب غنى منطقة الصيد، التي يعتاشون منها، وهذا ما جعل منهم رحالة، بالرغم من ان بعضهم اخذ يمارس الزراعة منذ زمن غير بعيد.

ويرى البيغمي في الغابة ارضاً خيرة، ذات ثروات هائلة تؤمن له كل حاجاته الحيوية. وبسبب تنوع الموارد الطبيعية، فرضت البداوة نفسها على قوم البيغمي، الذين اعتمدوا الهجرة الموسمية. وبذلك حافظوا على نعط حياة بدائية تعود اشكالها الى العصور الحجرية.

وللموسيقى مميزات خاصة ومشاركة لكافة قبائل وجماعات البيغمي، ولديهم مهارة ومواهب نادرة في التعبير الموسيقي، لا يمكن ايجاده عند بقية القبائل، وهو كناية عن تشعب في الاصوات والنغمات الشديدة التعقيد، والتي تظهر عندما يبدأ شخصان بالغناء معاً، قبل ان تنضم الجماعة بكاملها الى اصوات المغنيين.

تختلف الاغنيات بانواعها وايقاعاتها، ترافقها ايقاعات الطبول التي يستعملها البيغمي من القرويين عادة، (واحياناً يسرقها) وتبقى من الناحية التقليدية، غريبة عن حضارتهم.

الالات الموسيقية التي يستعملها البيغمي في احتفالاته، تتكون من الدعائم الخشبية التي تفرع بواسطة قضيبين (مقرعين) ويفترض ان يكونا مصنوعين من الخشب او من المعدن، لكن يبقى التصفيق بالايدي لتعزيز الايقاع، او للبدء بالاغنية او لمرافقتها، الاداة الايقاعية الاكثر تداولاً، ويطلقون على كواظمهم جلاجل تطن على وقع اقدامهم.

لا يقتصر الرقص والموسيقى على الاحتفالات والمناسبات فقط، بل يلعب هذان العاملان دوراً اساسياً في حياتهم اليومية.

بالإضافة الى الحكايات والاساطير، والتي تشكل ادباً شعبياً شديداً الغنى، وعنصراً مهماً من تراثهم الحضاري.

يقوم فرد أو أكثر برواية الاساطير عن طريق استظهار، أو "ترنيم بعض مقاطعها التي يرددها الجميع، ويمثلون بطريقة الاعماء الهزلي، المشاهد الأكثر اهمية، وغالباً ما يسبب هذا الاعماء أو يعزز التأثير الهزلي للحكاية، لاسيما ان شعب البيغمي موهوب جداً في الاعمائية والتمثيل بالاشارات الصامتة".

غالباً ما يترافق الرقص والموسيقى مع احتفالات الصيد، حيث تكون اما سابقة لها أو لاحتمامها. كذلك الامر بالنسبة الى تغيير مكان المخيم. فيتم اختيار البديل بحسب غنى ارضه بالطرائد، وهو اختيار يتم عن طريق احتفالات شديدة الاهمية تدعى "ابومبا" لدى قبائل "البابينغا".

يبدأ الاحتفال بالرقص لمدة يوم كامل حول نار المخيم على وقع الطبول، ملوحين بالخشيشات، بينما النساء منعزلات ترافقهن بالغناء.

وبعد انتهاء الرقص، يخرج رئيس القبيلة من كوخه، ويبدأ بالرقص على ركبتيه على وقع الطبول، الذي يتسارع باستمرار، يحيط به كل الرجال، ويتقدم راقصاً باتجاه النار، وعند وصوله يمعن نظره بالسنة الذهب، فيستشف صورة المكان حيث تكثر الطرائد، وبالتالي يتم الانتقال الى المكان الجديد.

قبائل الشمال الناييندي

قبائل الميوس، الياوو، الكارين والآخا، نزحوا من البلاد المجاورة لتايلندا، من بورما والصين والتبت، واختاروا العيش

في شمال تايلندا، في الجبال البعيدة عن بانكوك. بيوتهم من الخيزران، يعيشون فيها جماعات تنتمي الى حوالي ست اقلية مختلفة، ليست لها اية نقاط مشتركة مع الفلاحين التايلنديين الذين يعيشون في الوديان والسهول.

"الميوس" (واسمهم ايضاً الهمونغ) هم مزارعون من الدرجة الاولى، وحرفيون لا يضاؤون في مهارتهم. اما "الكارين" فيزرعون في تدریب الغيلة "الليزو" ويحبون الاعياد والرقص. "الياوو" هم في الارجح افضل الصيادين في الغابات. ويتوارث "الآخا" القصائد الشعبية شفهاً.

تعيش هذه القبائل على ضفاف نهر الميكونغ، ولم تدخل الكتابة الى حياتهم اليومية بعد، لذلك تراهم يعيشون حياة بدائية، في خيم من الخشب أو الخيزران، وسطوحهم من "اللانغ-الانغ" وهي عشبة مفضلة لدى الغيلة، وليس في قراهم مياه جارية ولا كهرباء.

تحمل الام طفلها في جيب كبير على الظهر، ويتكون من مربع من القطن الاسود، يسمح للطفل بالحركة، ويحزم الجيب الى ظهر الام بحزامين، وهو مزخرف بتطريزات حادة الالوان، وبكرات قطنية حمراء تتناسب مع تلك التي تزين قبعة الطفل.

والام مظهرها ملفت ومؤثر. تلف رأسها بمنديل واسع يبرز وجهها. لا تحني الرأس بسهولة، وهذا عائد الى ان زينة الرأس الثقيلة ترغم المرأة على التزام وضعية شامخة. وحياة النساء اليومية مجردة من اي شكل من اشكال الراحة.

نساء الآخا يلبسن التنورة المزركشة بالمعدن والمذيلة بالشرائط. ولباس الرأس مكون من كرات فضية صغيرة، تزينها قطع نقدية مختلفة، وتتخللها حبوب من الخرز الملون.

والمرأة المتزوجة في قبيلة الآخا تشك في مؤخرة لباس الرأس المزخرف قرصاً فضياً، وهو علامة خضوعها للزوج وللرجل بشكل عام. يسمى القرص الفضي "لسان المرأة العملاقة"، وفي تسميته أسطورة تروى وهي: ان شاباً صادف امرأة عملاقة رهيبية، صارعها وانتصر عليها، فقطع انيابها ولسانها، ووضعها عند مؤخرة الرأس لتنعكس عليه اشعة الشمس حين تنحني النساء للعمل في الحقول.

اللغة عند قبائل الشمال التايلندي مزيج من لهجات متعددة، كما ان بعضاً من هذه الجماعات لم يعرف الكتابة مطلقاً، وتقتصر على التقاليد الشفوية التي تنتقل من جيل الى جيل.

ولدى قبيلة الآخا أسطورة تفسر غياب الكتابة، وهي ان النصوص القديمة كانت مكتوبة على جلود الثيران، وتعرضت هذه القبيلة لغزوات متعددة، وفي احداها اكل الغزاة الجلود، لاعتقادهم انهم يحفظونها، او يستزيدون معرفة من خلال ذلك.

قبائل الميكي

جماعة من الرحل، يعيشون حياة بدائية، هم من سكان مدغشقر. اختاروا منذ ثلاثة قرون الانسحاب من الحياة المدنية، والعودة الى الغابة.

أساطير كثيرة تروى عن حياتهم، ومعيشتهم، وتصفهم واحدة بانهم جماعة من صفار القامة لونهم رمادي. يعيشون في غابة "توليار" شبه الخالية من السكان جنوب غرب مدغشقر. يختفون عن الانظار في النهار، ويظهرون في الليل فقط.

عدوهم الماء فهم لا يشربون ابداً، ويموتون بمجرد ملامستهم لها.

قلائل هم الذين استطاعوا الاقتراب منهم والتحدث اليهم، ومن بينهم الباحثة "لويس مولي"، الذي قام برحلة في "خليج الفتلة" في العام ١٩٥٦، واكد انهم ليسوا اقزاماً، وان من الصعب البقاء معهم على قيد الحياة، بسبب عدم وجود الماء.

الرحالة الثاني الذي استطاع ان يكتشف بعض خفايا حياة الميكي، هو "جان ميشيل هورنر" الذي قام برحلته في العام ١٩٧١ اي بعد مرور خمس عشرة سنة على الرحلة الاولى، التي قام بها "مولي".

التقى هورنر بعائلة من قبيلة "الميكي"، وكان له معها حديث سريع حصل من خلاله على معلومات تؤكد: ان الميكي هم الوحيدون في العالم الذين يستطيعون البقاء على قيد الحياة من دون ماء، اذ يقتصر غذاؤهم على بعض انواع معينة من جذور الاشجار، ومن القنافذ والعسل. ينقسمون الى جماعتين مختلفتين: الغيزو، والمازيكورو وهم جماعة من المزارعين.

يقول الرحالة هورنر: "ان ميزتهم في معرفتهم للحياة الحضرية المدنية، لكنهم اختاروا ان يعيشوا كالبدايين".
يقدر عددهم بحوالى ١٥٠٠ نسمة، بينهم مئة فقط من الرحل الحقيقيين، غير المستقرين.

صحافيان فرنسيان هما ميشيل رفول وجان كلود بتانشيني كتبوا تحقيقاً واسعاً عن قبيلة الميكي، في مجلة "ريبورتاج" الفرنسية ويريويان في هذا التحقيق، كيف ان الاشواك الناعمة كالابر دخلت في بشرة وجهيهما وفي جسديهما في اثناء بحثهما عن الميكي.

وبينما كانت الحرارة ترتفع، والاغصان كثيفة بشكل ملفت للنظر، خرج اليهم من بين الاغصان رجل عجوز، وقادهما الى حيث تسكن قبائل الميكي.

ظهرت الاكواخ الصغيرة المصنوعة بشكل بسيط وبدائي جداً. الرجال ذهبوا للتفتيش عن جذور "البابو" الغذاء اليومي. وكان المخيم يقوم وسط حقل من الذرة المحروقة.

الرجال الميكي يعيشون كالحوانات ويختبئون باستمرار. يغيرون اماكن وجودهم كل ثلاثة ايام، وهم لا يلتقون بعائلات اخرى لان الشرط الوحيد للبقاء هو التشتت في الغابة، كي يسهل العثور على الطعام في كل الفصول.

يحفرون الارض ويشعلون النار، وينامون حيث يشعرون بالتعب والنعاس.

ليس لديهم اي انتاج، ولم يتعرف الباحثون الى ثقافة معينة لديهم، كل همهم العمل للبقاء على قيد الحياة، واستمرار وجودهم في الغابة.

قبائل البابوا

كانت الخرافات في الماضي، تتهم قبائل البابوا بانهم يأكلون لحوم البشر. لكن تلك الايام ولت، ولم يبق من عادات تلك القبائل الا بعض التقاليد الجماعية البريئة، التي يمارس معظمها في اثناء الاحتفالات والمهرجانات.

اليوم لا يتجراً الزائر على القيام برحلة في نهر سيبك الطويل، مغترقاً الادغال الكثيفة، من دون ان تصيبه الرعشة، وهو يتذكر ما قرأه عن تلك البلاد وعن ممارسات قبائلها الوحشية.

"منذ زمن طويل لم اكل لحم البشر"... هذا ما قاله "اونامانا بيه" عضو البرلمان في بابوا-نيو غينيا الجديدة، و اضاف قائلاً: وانني مسرور الامر.

واذا كان عضو البرلمان، امتنع عن اكل اللحم البشري، فان مواطنيه لم يفقدوا بعد الشهية لذلك النوع من اللحوم. وفي احيان كثيرة يختفي بعض الموظفين، الذين كانوا يبعثون الى الغابات والجبال، وعلى ايدي الناس المتوحشين، الذين لم يعرفوا المدنية، والذين يسكنون في تلك المناطق، حيث تقوم معارك بالفؤوس والسهل والعدى. وهناك يخطف الاطفال، ويضحي بهم، وتتوالى الاغتيالات.

هذه الافعال المخيفة تدور رحاها على بعد ١٥٠ كلم فقط من القارة الاوسترالية، وتنتشر أخبارها يومياً في الجرائد. وبالإضافة الى هذا، يقرأ الناس في اوستراليا، ان رئيس وزراء تلك المقاطعة، واسمه كوخ فيتها لم، ينوي طلب الاستقلال والانفصال عن اوستراليا. وهذه المقاطعة التي تدعى "بابوا-نيو غينيا" كانت في يوم من الايام، تابعة للإمبراطورية الالمانية.

ومن العادات التي لا تزال سائدة في هذه البلاد، عادات الزواج الذي هو مسألة تجارية، فيها اخذ وعطاء، ومساومة على السعر. واوصى احد مجالس الاقضية بجعل سعر العروس ثابتاً وهو ٢٤٠ دولاراً، يدفع نصفه نقداً بالعملة الورقية، والنصف الثاني بالاصداف البحرية.

وفي المناطق الجبلية النائية سعر العروس هو ٢٤٠ دولاراً، بالإضافة الى خمسة عجول وطائر الكاسواري، وهو طائر اشبه

بالنعامة، وسعر المطلقة أو الارملة هو ٣٠ دولاراً، اما المرأة المتزوجة اكثر من مرة، فلا قيمة تجارية لها.

الاجانب الذين يقيمون في باوبا-غينيا الجديدة، يقولون انهم لم يفهموا البلاد بعد، وانه يتوجب على الزائر الا يحاول ان يفهم، بل ينظر ويكون انطباعاته عن البلد الجديد، الذي يخرج الى حيز الوجود.

الاشتباكات تقع بصورة دائمة بين القبائل. وفي اكثر من عشرين حرباً وقعت، قتل العشرات وجرح المئات... واسباب هذه الحروب، هي عادة اماً الخلاف على امرأة او حيوان، والشرطة قليلاً ما تتدخل، بل تطوق ميدان المعركة، وتضع على مداخله لافتة تقول: "التقدم اكثر يشكل خطراً، هنا معركة بين القبائل".

الاعتداءات على الاجانب البيض قليلة بصورة عامة. ولكن الخوف موجود في كل المدن. والبيض يتحاشون الخروج ليلاً، والفنادق تنصح النزلاء بعدم الخروج "من اجل مصلحتكم".

المعارك القبلية تعكس اهم الحقائق الاساسية في باوبا-غينيا الجديدة. والانتماء الى قبيلة ما، والتكلم بلغة ما، عادة يشكل تحدياً آخر، ويسبب الاقتتال.

هناك لغات لا يزيد عدد الذين يتكلمون بها، اكثر من مائة شخص. واكبر جماعة لا يزيد عدد افرادها عن خمسين الف نسمة، وغالباً يتحدث سكان الوادي بلغة مختلفة عن سكان جبل مجاور. ويوجد نظام متبع لاقتسام الاموال بين القبيلة او الجماعة الواحدة، اسمه نظام "الونتوك"، او نظام الذين يتكلمون لغة واحدة. وبموجب هذا النظام يجب اقتسام الارباح بين جميع افراد القبيلة، اذا دعت الحاجة. مثلاً، اذا كان عامل يتقاضى ١٥ دولاراً

في الاسبوع من عمله، يعطي نصف المبلغ لعضو آخر في عائلته، ويعطي الثاني نصف ما اخذه الى شخص ثالث، وهذا يعطي نصف حصته لرابع، وهكذا دواليك.

واذا غاب شخص عن قبيلته عشرين عاماً، فان قبيلته مسؤولة لدى عودته عن ايجاد مكان له ومساعدته على بناء منزل وانشاء حديقة.

بعض معتقداتهم غريبة، بل وعجيبة، في جزيرة "نيوهانوفر" بدأ افراد قبيلة منذ العام ١٩٦٤ بادخار المال، بعد ان استقر رأي كبار "مفكريها" على شراء الرئيس الاميركي السابق ليندون جونسون.

كانت "الفلسفة" الكامنة وراء ذلك هي: "بما ان جونسون هو زعيم قبيلة في العالم، فكل ما عليك ان تفعله لكي تشارك تلك القبيلة ثروتها، هو ان تمتلك زعيمها".

قبيلة التاساداي

قبل العام ١٩٦٧ كانوا مجهولين تماماً، كانوا من عالم ما قبل التاريخ، وحين خرجوا من مغاورهم الموعظة في الاحراج، التي لم يخترقها الانسان، فوجيء بهم العالم، ولعله يفكر بطريقة يفنيهم بها، كما افنى الهنود الحمر، وبعض القبائل القديمة.

لذلك يدخلون التاريخ من باب الواسع، كنموذج عن الانسان الصافي الطيب، الذي لم تلوثه الحضارة، ولم يهدده العلم، ولم يندره التلوث او اخطار التقدم الصناعي.

انهم افراد قبيلة التاساداي التي تعيش في الفيليبين، في جنوب جزيرة "مناوا"، الكبيرة بين بحر "سليبي" و"كيماو"، اي في

"كوناباتو". ولعل معظم هذه الاسماء مجهول لدى العالم اجمع، فلا تذكر الا صدفة او في المناسبات.

اكتشفت التاساداي في مناطق تقع تحت حماية مؤسسة "بانامين"، لحماية السكان الاصليين، حيث تعيش في السهول قبائل "البليت" و"الابوس" من الصيد بالقوس، والزراعات البدائية.

ولم يكن احد يتصور ان قرب تلك السهول، وعلى ارتفاع ١٥٠٠ متر، في غاب يصعب اختراقه، وفي مغاور معلقة على جوانب الجبل الصخري، توجد قبيلة اكثر بدائية من البليت والابوس تعيش حياة هائلة وبسيطة، وان تكن حياة قاسية في نظر "المتدنين".

اكتشفهم صياد من قبائل البليت العام ١٩٦٧. وكان دافال - هذا هو اسم المكتشف التاريخي - اول بشري يراه التاساداي. كانوا يعتقدون انهم وحيدون في العالم، وان حدود الارض لا تمتد الى اكثر من غاباتهم ومغاورهم.

كان "دافال" يتبع طريدة، فاخترق الغابة. ثم ضل طريقه. وفجأة رأى جماعة تشبه اخوانه في القبيلة. كانوا صفار الاجسام، يشبه لون بشرتهم السمرة الحادة، شعرهم املس او قليل التجعد، وجناتهم نافرة. وكانوا عراة الا من ورقة "الاوركيد". اما النساء فيضعن على نصف جسدهن الاسفل "قنورة" من اوراق النخيل.

شعر الجانبان بالخوف، "دافال" والآخرين. وهرب كل باتجاه، صائحاً من الرعب. ولكن الصرخات اشعرت الطرفين ببعض الطمأنينة، لانها متشابهة. ولم تكن لغتهم غريبة تماماً عن لغة قوم دافال "البليت".

وتوصل المطلون بالفعل الى اكتشاف نسب التاساداي: انهم

جماعة انفصلت عن بعضها بعضاً، منذ ستة او ثمانية قرون. ولكن لا احد يعلم متى تم الانفصال بالتحديد، ولا سببه، ولا الطريقة التي تم بها.

كما لا يعرف كيف استطاعت قبائل التاساداي ان تدبر امر عيشها، في خلال هذه القرون، وليست لديها اسلحة او ادوات زراعية او منزلية، او حيوانات داجنة او اية بنية اجتماعية. بينما القبائل المشابهة تملك مثل هذه الامور الاولى.

اجريت مقارنة بين لغة التاساداي واللغات الثلاث عشرة المنتشرة في منطقة "مناو"، فوجد ان لغة التاساداي اقرب كل اللهجات الى لغة "البليت". ولكن تنقصها بعض الالفاظ الاساسية: كالأرز والقوس والسهم والملح والحديد وغيرها، لان التاساداي تجهل هذه الاشياء اصلاً.

ويقرر المحققون ان الانفصال تم بين التاساداي والبليت، اثر حرب او داء او فاجعة طبيعية.

ثمة نظريتان متضاربتان: اما ان التاساداي تركوا السهل لينجأوا الى الجبل، واما ان "البليت" تركوا الجبل ليقيموا في السهل وليتحولوا الى عصر "الحديد والصيد والزراعة وتربية الحيوانات".

على اية حال، حين تفاهم دافال والتاساداي، قدموا اليه باقة من فيات "التانول"، وقدم اليهم سكيناً وقوساً، وحاول ان يعلمهم الصيد.

ولكن فكرة قتل الحيوانات لاكلها، لم تكن مقبولة لديهم. فالحيوانات اصدقاء لهم. كانوا يصطادون السمك، ولكنهم لم يصطادوا حيواناً يوماً. ولم يأكلون بيض الطيور التي تحيا معهم في مغاورهم.

وحين قيل لهم ان "الكريتلة" وبعض الحيات سامة، قالوا: "ليس من عادتها ان تؤذي اذا لم يثرها احد، ويمكن القول ان التاساداي يعيشون حياة تشبه الحياة في النعيم، فهم في سلام دائم مع محيطهم.

بدا الامر غريباً جداً في نظر دافال، بعد اقامته اياماً عدة لدى التاساداي، وقد تحدث عن ذلك الى المسؤول من قبل مؤسسة "بانامين"، وجرى الحوار التالي بين الاثنين:

- لماذا اردت ان تعلمهم الصيد ؟

- لانهم كانوا جائعين.

- هل قالوا لك انهم جائعون ؟

- لا، ولكنني اعتقدت انهم جائعون. فهم لا يأكلون الا بعض النباتات التي تشبه البطاطا.

- هل احببت هؤلاء القوم حتى قدمت اليهم تلك الادوات ؟ ام انهم اعطوك شيئاً بالمقابل ؟

- اعطوني "التانبول"، وهو افضل نبات في المنطقة.

ومن خلال المعلومات التي وصلت اليها، نعلم ان التاساداي لم يتذوقوا مرة السكر او الملح او الارز او القمح، في عرفهم هذه المأكولات سامة لا تصلح للاكل.

اما اكلتهم المفضلة فهي لحم القروء، وهم يستعينون في صيدها بالادوات التي يصنعونها من الحجارة. ينجزون اغصان الاشجار ويؤلفون منها مصائد يوقعون فريستهم بها. ومن اغصان الاشجار ايضاً يستخرجون العيدان التي ينظفون اسنانهم بها، ليس من اللحم فقط، بل من المادة المطاطية التي يلتذون بعلقها.

لذلك قرر المسؤولون عن "البانامين" ان يراقبوا التاساداي عن

كثيب. كان ذلك في السابع من حزيران (يونيو) من العام ١٩٧١، اليوم الذي يعتبر بداية تاريخ التاساداي.

فقد انزلت طائرة الهليكوبتر-الحشرة ذات البطن الكبير، كما وصفها التاساداي-اثنين من العلماء على احدى الاشجار قرب منطقة قبيلة التاساداي، وتم التعارف بين العالمين وبينهم، وقام احد رجال قبيلة "البليت" ويعرف اللغة الانكليزية ولغة المنطقة، بالترجمة بين الطرفين. واستمر العمل منذ حزيران (يونيو) من العام ١٩٧١ الى ايار (مايو) من العام ١٩٧٢، واتي بثلاثة باحثين اقاموا مع قبيلة التاساداي على فترات ثلاث.

قال العالمان في تقاريرهما: اكتشاف التاساداي امر غريب، ومفاجأة المفاجآت بالقياس الى التاريخ الحديث. والحق ان عزلة قوم عن التاريخ، وعدم خضوعهم في خلال حقبة طويلة جداً لاي عامل من عوامل التطور او الحضارة، حتى المبنين على الزراعة او استخدام المعادن، وعدم تبدل لون حياتهم بالهجرات او بأي عامل آخر، كل ذلك مفاجأة لا مثيل لها في العالم، وستكون دراستهم جذاً خطيرة بالقياس الى الحضارة، وذات نفع كبير من دون ريب.

ومهما يكن، فان التقرير الذي رفعه كارلوس فرنانديز وفرانك لنش حول قبيلة التاساداي غير كاف. فهو يصف المحيط وتشكيلهم الاجتماعي ونمط حياتهم، ثم يذكر التغيير الذي طرأ بدخول بعض الادوات المعدنية على طريقة عيشهم منذ العام ١٩٦٧.

ويعرض لمسائل البيئة التي تطرحها حياتهم البدائية والوحشية، ومع ذلك فهي كاملة التوازن متلائمة مع حاجات الانسان والطبيعة.

يعيش التاساداي في وادٍ ضيق، كثير التعاريج، على علو ألف وستمئة متر تقريباً في اقليم رطب وحار، استوائي تكثر فيه

الامطار وترتفع الاشجار الى علو خمسين متراً، تنبسط تحتها الطحالب والنباتات المعرشة واليامبر والموز والبلح.

طبيعة التربة فخارية لزجة معظم الوقت، تنساب منها ينابيع صغيرة تتجمع مياهها في قعر الوادي، لتكون نهراً عرضة بين مترين وعشرة امتار، وعلى علو مائة وخمسين متراً فوق مستوى النهر، ثلاث مغاور تخفيها الاعشاب والاشجار الصغيرة، ولا تستخدم اثنان منها الا نادراً، اما الثالثة فتقطنها القبيلة، عرضها عشرة امتار وعمقها عشرة، وارتفاعها سبعة.

وثمة نار تقف من دون توقف، تشير الى وجود بشر في تلك المغارة التي لا تنطوي على ادوات مطبخ، او اية اداة اخرى، وليس على جدرانها اي رسم او اشارة.

في العام ١٩٧٢ كان عدد التاساداي ٢٥ سبعة رجال، خمس نساء بالغات، ثلاثة عشر طفلاً بينهم احد عشر صبياً وبناتان.

يعيش الجميع حياة الفة، وسعادة في المغارة، وليس لهم رئيس ولا اي نظام او مؤسسة اجتماعية ظاهرة، يتوزعون العمل حسب الامكانات، على رقعة من الارض صغيرة، اما في ساعات الراحة، فيجتمعون حول النار، فاذا حان النوم تكس بعضهم الى جنب بعض.

يقتسم التاساداي كل شيء، وتعتبر الخلية العائلية اساساً في هذه الجماعة، ولا طلاق ولا هجر، ويتساوى الرجال في كل شيء، وبين الجماعة زوجان معمران هما كولاتا و سيكل، ولهما ثلاثة اطفال ووليدتين.

ومن عادات هذه القبيلة الصغيرة، ان الذكور وحدهم يبقون في الجماعة، اما الاناث فلا، يتزوج الرجال من فتيات من مجموعات

ثانية هي "التاسافانج والساندوكا"، ولكن الباحثين لم يكتشفوا مكان وجودها حتى اليوم.

الغريب ان قبيلة التاساداي لا تعرف على وجه التحديد موقع تلك المجموعات، اما تبادل الفتيات فيتم غالباً في لقاءات تحدث صدفة، وهذا ما يحير الباحثين الذين يعتقدون ان المجموعات الاخرى يجب الا تكون بعيدة عن موقع التاساداي، ومع ذلك لم يعثروا على اثر لها منذ بدأوا البحث.

ويبدو ان مهمة الخلية العائلية هي لضرورة الانجاب، ولكن الباحثين لا يعرفون شيئاً عن الحياة العائلية لقبيلة التاساداي، باستثناء ان النساء ترضع اطفالها حتى الثالثة او الرابعة من العمر، مما يحول دون عمل النساء في هذه الفترة.

اما تربية الاطفال وحمايتهم فمن مهمات المجموع، ويعمل الاطفال بعد ان يكبروا قليلاً مع المجموعة من دون تمييز، وتجهل المجموعة فكرة "التملك" اصلاً، ولذلك لا يتم توزيع العمل على اساسها.

حين حصلت المجموعة على بعض الادوات لم تتبدل العلاقات بينهم، ولا طريقة العمل، حتى الادوات لا تخص اشخاصاً من دون اخرين، انها ملك الجماعة، فمن احتاج اليها استخدمها، وقد يتركها في المكان نفسه الذي استخدمها فيه.

ولما كانت الجماعة من دون رئيس، فان توزيع المهام يتم على نحو عفوي، وحسب الكفاءات والقوى، فالاطفال يصطادون الضفادع والاسماك الصغيرة، وتجني النساء الثمار، ويقطع الرجال شجر البلح.

ويمكن القول ان هذا التعاون له فلسفة خاصة واعية، ويقول التاساداي: "علمنا القدماء ان اجمل ما في الوجود العيش معاً في

الغابة، غير بعيد عن المغارة، ثم العناية بالأشجار".

ان استخدامهم المحيط الذي يعيشون فيه من دون هدر، يسمح لهم بالعيش من دون جهد كبير، ومن دون حاجة الى التنقل. وهم يجهلون الزراعة وتربية الحيوانات والبناء، لكنهم يجيدون "ادارة" الطبيعة، فيستغلونها ولا يبالغون في استغلالها، مما يتيح لهم ان يحيا مقتصدين مما يجنونه على مساحة ضيقة. فلا يأخذ البحث عن طعامهم اكثر من ثلاث ساعات يومياً، وهو عملهم الوحيد على كل حال. اما باقي وقتهم فيقضونه في اللعب والاحلام، او الاكل او النوم.

يعملون صباحاً، فيذهب الرجال الى شجر البلح، وتمضي النساء الى جني الثمار. اما الشيوخ والاطفال فهم احرار في البقاء قرب النار، او مرافقة الكبار.

وليس ثمة برنامج لجني الثمار، او البحث عن الطعام. مع على كل حال يجنون ما يجدون في طريقهم، ويستهلكونه حيث يجدونه، او يحملونه معهم في سلاسل من "الناف-ناف". ويجمعون في الوقت نفسه الحطب للنار. وينتهي العمل قبل الظهر غالباً، ويعود الجميع الى المغارة. وتقوم النساء بطهي الطعام على الجمر، او في جذع البامبو.

المغارة بعد الظهر هادئة، النساء يمشن بعضهن بعضاً بساق البامبو، والرجال يتحدثون. اما الاطفال فيلعبون معلقين بحبال النبات تعاماً كالقروء. ولا يبتعد احد عن باب المغارة. ويتعشى الجميع مما بقي من الغداء، ثم توقد النار جيداً، وينام الجميع مع غروب الشمس. ولا يختلف اليوم عن الذي يليه او سبقه. ولا يحتفظ التاساداي بمؤونة، وليست لديهم اوان لحفظها. ولا يحسبون للمستقبل اي حساب.

ويبدو ان التاساداي لا يعنون بالروزنامة اطلاقاً، فثمة عملان اساسيان: "استغلال الطبيعة من دون هدر، والحفاظ على العزلة المطلقة في ظل المغارة".

استمرت هذه العزلة قرابة ثمانمائة سنة، فكسرها "دافال" في العام ١٩٦٧ "والبانامين" في العام ١٩٧٢، ولئن كان دخول الادوات المعدنية على حياة قبيلة التاساداي قد سهل سيل عيشهم، الا انه لم يبدل شيئاً من منهجهم في العيش، وقد رفضوا كل ما يمكن ان يقلب نظام حياتهم. فهم بالرغم من الادوات المعدنية، لم يرضوا بالزراعة او البناء.

وعبر التاساداي في خلال ثلاث سنوات من العصر الحجري، الى العصر الحديدي. من دون ان تنقلب حياتهم، لان دور الادوات ضئيل جداً في الحصول على طعامهم، ولا قيمة للاداة في حياة انسان، لا يحرث الارض ولا يصنع ولا يبني.

ظل التاساداي حتى مجيء دافال يأكلون الاطعمة نفسها، ومعظمها من النباتات والشمر والاسماك. ولم يستخدموا من الادوات الا نوماً من المفروز، ينقبون به الارض للبحث عن النباتات الدرنية كالبطاطا، ويقطعون بالفراغة بها الاغصان ليصنعوا منها المفارز، وفراعتهم على كل حال من الحجر، ولا تشبه اية من تلك التي عثر عليها في الفيليبين، فهي بدائية وغير مصقولة، وتتخذ عادة من حجر يرمى على صخرة فينكسر، وتستخدم احدي قطعه لتكون فراغة، اذ يربط الى عود بواسطة الياف من الشجر. ولا تستغرق العملية كلها اكثر من ربع ساعة.

وقد يلقي بالفراغة بعد الانتهاء من العمل. كذلك حال الادوات الاخرى كالمطرقة وغيرها. ولكن الفراغة الحديدية حلت محل الحجرية منذ العام ١٩٦٧.

حمل دافال بين العام ١٩٦٧ و ١٩٧١ الى التاساداي خمس اقواس وثلاثين سهماً، وخمس قطع قماش وكيساً وسلتين وفراعتين وسكيناً، وابرة وخيطاً من النحاس طوله متران لصنع الاقراط، وعلمهم كيف يستخدمون هذه الادوات.

كان رد فعل التاساداي على هذه الادوات اختياريّاً، اي انهم اختاروا منها ما يلائم طريقة عيشهم، فتهبوا الفراعة الحديدية، وقاد ذلك الى اختفاء الفراعة الحجرية من حياتهم، ذلك ان الحديدية تسهل عملهم، وتساعد على قطع اشجار البلح بسرعة ليستخرجوا قلبها، فيصنعون منه حلوى تشكل طعامهم الرئيسي. كما انهم تعلموا من دافال صنع الفخ لصيد القروء، ولكنهم حرصوا على طعامهم وعلى صيد الاسماك.

لا تفسير لهذه البادرة، الا ان التاساداي بفطرتهم التي لا يملكها المتمدن، عمدوا الى هذا الاختيار بين الادوات، بما لا يقلب شكل حياتهم وانسجامهم.

تقتصر بيئة التاساداي على المغارة والغاب والنهر وما يحيط به، ويعيشون في "ارض خضراء" كما يحلو لبعضهم ان يصفها، وهم يتحاشون الحيات، ولكن كل ما حولهم في تلاؤم وانسجام عجيبين، وتحالف الورود والاشواك كما يتحالف الانسان والحيوان.

ويمكن القول ان حياة التاساداي غير قائمة على الغابة، "فمحصولهم" غير متوفر فيها، انها قائمة على النهر وما يحيط به، فيه حيوانات مائية كثيرة، اهمها لديهم الضفادع التي يزيد طولها احياناً على عشرين سنتيمتراً، كما يصطادون السمك باليد، ومتى استخرجت السمكة ضربت على رأسها والقيت على الارض.

من اجود الطعام لديهم قلب شجر البلح، وهو يؤكل نياً او مشوياً او مغلياً في جذع البامبو. وله طعم الارضي شوكي، اما ما يجنيه التاساداي من الغابة فهو الثمار والعسل والفطر، تساعدهم الفراعة على شق طريقهم في الدغل، ولا يبتعدون كثيراً، خوفاً من الضياع. اذا قطعوا شجرة من البلح، او ما يشبهها، شقوها الى اقسام ودهرجوها باتجاه النهر، وهناك تشق الاقسام عن البابها وتفصل، مساحة الارض التي يعيش عليها التاساداي لا تتجاوز ٢٥ كيلومتراً مربعاً، بمعدل كلم مربع للشخص الواحد.

وبالرغم من ان عدد التاساداي مستقر تقريباً، فمن يموت يعادل من يولد تقريباً، ويتوقع الباحثون ان يتزايد العدد وان يبطء. وهناك سيوسع التاساداي رقعة الارض التي يجنون منها طعامهم، او ان ينفصل بعضهم فيعيش في رقعة ثانية، ربما ليعرّضوا على الانسجام بين مساحة الارض وعدد السكان.

ولا بد ان يضاف الى عناصر الانسجام في حياة التاساداي "ارتفاع مستوى معيشتهم"، فهم يأكلون جيداً، وينامون جيداً، ويعملون قليلاً، وليسوا في حاجة الى الابتعاد عن مسكنهم.

ويمكن القول ان التاساداي يشكلون "مجتمع الراحة الدائمة" فلا توقعات ولا ادخار، ولا مؤونة، اذ لا معنى لذلك كله في حياتهم. الحاضر والمستقبل في وجودهم واحد، ولا يستطيعون تصور مستقبل بعيد، كما لا يقرون على تذكر احداث مضت منذ خمس او ست سنوات.

وحتى الآن لم يعرف لقبيلة التاساداي غناء او رسم او نحت، وليست لهم احتفالات خاصة ولا اعياد، ولا يعلم احد ما يفعلون بموتاهم. وقد تكشف الابحاث الجارية عن تقاليد فولكلورية غنية ما يزالون

يخفونها عن الآخرين. او يقبل الباحثون بالحقيقة التالية: وهي ان اسعد شعب في العالم - اي التاساداي - ليس له من الذكاء اكثر من حيوان متخلف.

ومع ذلك تكمن وراء لامبالاتهم وحياتهم قاعدة فطرية، تكاد تكون فلسفة خاصة بهم، تسمح لهم بالعيش في اقل جهد، ومن دون ان يصيبهم ضيق. انهم يقبلون "وتيرات" الطبيعة، وتفرض الا يتناولوا الا ما يحتاجون اليه من دون تخمة.

قبيلة كاراماجونغ

قبيلة "كاراماجونغ" هو اسم افقر قبيلة، بين مجموعة القبائل الكبيرة في اوغندا واكثرها بدائية، وتعيش هذه القبيلة في اراض رملية فقيرة تبلغ مساحتها اربعة آلاف ميل مربع في الشمال الشرقي الثاني.

يبلغ عدد افرادها ٢٨٠ الف نسمة، واعضاء القبيلة لا يكادون يعرفون من الادوات الا رماحهم ذات الاتصال الفولاذية، ولا يكادون يعيشون على اكثر من الحليب، ولا ثروة لديهم غير قطعان ماشيتهم العطشانة.

لذلك سيطر حزن شديد على ابناء قبيلة "كاراماجونغ"، عندما ادركوا ان الشيء الوحيد الذي يقلق الحكومة في العاصمة البعيدة كامبالا، كرنهم لا يرتدون اية ثياب.

فنساء قبيلة "كاراماجونغ" قد يتزين بوزرة قصيرة الشكل، او بقطعة جلد، لكن الرجال لا يتحملون اي شيء اكثر من خخلال واقراط حلق ويضعة عقود نحاسية.

هذه الثياب المختصرة اقلقت رئيس الجمهورية، الذي اصدر

مرسوماً يأمر به رجال القبيلة، بوجوب ارتداء القمصان والسرراويل وانتعال الاحذية.

صعق ابناء القبيلة لهذا الامر واعتبروه عملاً قمعياً، وحاول شيوخ القرى ان يقرأوا علناً اعلان رئيس الجمهورية، لكن كلماتهم ضاعت وسط صراخ رجال القبائل الساخطين.

وكان على رئيس الجمهورية، ان يتجول شخصياً في المقاطعة ليتكلم على محاسن وفضائل السرراويل. واقتنع بعض رجال القبائل بنداياته، ولكن وباء كوليرا انتشر بعد ذلك ببضعة ايام، مؤكداً ظناً قديماً، يقول ان كل ما تفعله الثياب هو انها تخيب المرض.

قبائل البلوش

البلوش شعب قبلي يعيش في منطقة بلوشستان، التي تقع بالقرب من ايران، وهي اليوم موزعة بين ثلاث دول: باكستان، افغانستان، وايران، ولكن القسم الاكبر منها يقع في باكستان.

البلوش خليط من شعوب مختلفة، اهمها الرند واللاشارا اما الباثان فهم شعب غير بلوشي ولكنه يسكن ايضاً بلوشستان.

لقبائل تلك المنطقة عادات وتقاليد عريقة متوارثة، والبلوشي شديد العزم على تعليم ابنه منذ طفولته، احترام تلك التقاليد والتمسك بها.

"البلوجمياري"، اي مجموعة التقاليد والاعراف غير المكتوبة، ذات الاركان التسعة وقوامها: الشار والكرم، والسماح والشرف، ومساعدة الضعيف، والثقة والابقاء على الوعد، والتوبيخ عند الخطأ.

وهناك الكثير من الاشعار التي تتحدث عن تعلق البلوشي بشرفه وكرامته، ويضحي للحفاظ عليهما

كانت التقاليد والعادات الصارمة قد سببت للبلوش منذ زمن بعيد حروباً عديدة، وجرتهم لنزاعات قبلية لا تنتهي. ومن أهمها: حرب اهلية دامية جرت في القرن السادس عشر، ودامت ٣٠ عاماً، جرت على القبائل المتناحرة الويلات.

الفجر... وعاداتهم

من هم الفجر؟ من اين يأتون؟ الى اين يرحلون؟
عالم اشبه بالاساطير، ظن البعض ان ولوجه محرم. واعتبر كثيرون انه وقف على اصحابه، لا يعرف اسراره سواهم.

يطوون هذه الاسرار بين خباياهم، في الشتاء يفرقونها في السواحل، وفي الصيف ينقلونها معهم الى اعالي الجبال. الرجال والنساء يعملون، كل له عمله الخاص به.

منذ امد بعيد والمحاولات جارية للكشف عن سر تلك الجماعات التي تملك في كل بلد مكاناً. والتي تعيش مع الحضارة وعلى هامشها في آن معاً. دويلات داخل الدول، لها كل المقومات الا مقومات الارض والحدود.

مئات الكتب خصصت للحديث عنهم، وجميع الوسائل استخدمت لفرق اسرار اصلهم، وفك رموز رحيلهم الدائم، وتمسك اختلاط قبائلهم. بيد ان سر الفجر ما يزال غامضاً، وشعبهم ما زال اكثر الشعوب مدعاة الى الدهشة في تاريخ البشرية. ذلك انهم آخر من يمد يد العون لعلماء التاريخ، الذين يتكبدون على دراسة اصلهم، فيخرجون باستنتاجات متناقضة.

وبلمحات من الحقيقة التاريخية ممزوجة بحكايات واساطير ، لا يعرف مدى ارتباطها بالوقائع التاريخية وتضخيمها لها .
يعيش الغجر في أوروبا في رحيل بطيء ، ولأنهم رحل يبتعد الناس عنهم ويخافونهم . فالناس لا يحبذون ان يتصرف الآخرون على غير شاكلتهم . وهذا ما دفع بالاوروبيين لان ينظروا الى الغجر على غير حقيقتهم . ويحملونهم بعض ما لا يطبقون حمله من الاوزار . اتهموهم بسرقة الاطفال ، والواقع ان هذه التهمة لا تمت الى الحقيقة بصلة ، ان درج الغجر على النقاط الاولاد المنيوزين ، فسارع الناس الى صبح هذه العادة بنوايا سوداء . وقالوا ان الغجر انما يلتقطون الاطفال لتشغيلهم فيما بعد .

قام بعض المؤرخين باجراء دراسات حول الغجر . ومن خلال استنتاجاتهم تبين لديهم ان تاريخ هذه القبائل يعود الى اصول البشرية تقريباً ، اي الى ما قبل ثلاثة آلاف سنة من التاريخ القديم . فقد تجسعت آنذاك على شواطئ الهندوس قبيلة من الجنس الابيض ، يتقن افرادها صنع المعادن ، ويعرفون اسرار البرونز . تلك الاسرار التي اطلعوا عليها شعوباً اخرى ، عندما حان موعد الهجرة الكبرى .

بدأت هذه الهجرة حوالي سنة الف ق . م . فانطلق الغجر من الهند ، وتوجهوا نحو آسيا الصغرى . ومن هناك تفرقوا الى مجموعتين كبيرتين ، انقسمتا الى فروع متعددة .

اتجهت قافلة نحو جزيرة كريت وبلاد البلقان . وتقدمت اخرى نحو مصر وافريقيا الشمالية لتصل اخيراً الى اسبانيا . وتفرع عنها قسم اجتاز شبه الجزيرة الايطالية ، وعبر منها الى سويسرا وفرنسا والمانيا وبلجيكا ، ومن هناك الى انكلترا .

ومن الفرعين الاساسيين ، انطلقت فروع في اتجاهات عدة ، فبلغت أوروبا الشمالية والدانمارك والسويد .

اكتشف المؤرخون ان الغجر زرعوا اولى بذور الحضارة في كل مكان اجتازوه ، منذ ازمة ما قبل التاريخ . حتى ان هوميروس اطلق عليهم اسم "شعب النجمة" . وقد اسس بعضهم ، بقيادة زعمائهم بلداناً كالبانيا ، التي تأخذ اسمها من كلمة "ألبا" اي ابيض . وكانت كلمة ابيض تطلق على الرؤساء بصفة خاصة ، وتطلق بصفة عامة على الشعب الغازي المنتصر . بينما تطلق كلمة "اسود" على الشعوب المغلوبة على امرها .

وكان من شيوع استعمال كلمة ابيض عند الغجر ، ما حمل المؤرخين على اتخاذها بمثابة مؤشر لتتبع آثار هجراتهم حتى اقدم الازمنة . فكانت لهم عوناً اكيداً ، لان تراث هذا الشعب الرحال ، تراث شفهي كله ، ينتقل من الام الى ابنتها ، ولا يمكن معرفة شيء عنه ، سوى ما يقبل الغجر بكشفه .

اسفرت البحوث عن ان الغجر هاجروا حوالي سنة ٥٠٠ ق . م الى اسبانيا ، مروراً بالمغرب ، وصادفوا الكثير من الاضطهاد في شبه الجزيرة "الايبيرية" ، واطلق عليهم اسم "السود" ، اما في قشتالية فقد اطلق عليهم لقب "خيتانوس" اي الاشرار .

ولكن حين يطلب الباحث الحقيقة من افواه اصحابها ، يجد ان الاساطير تختلط لديه بالوقائع التاريخية . فالغجر يتقنون رواية القصص ، ويزينون بالحكايات الخارقة اطول السهرات . . . وهم يؤكدون انه من الطبيعي جداً ان يرى الغجر المستقبل باكثر وضوح من سائر الشعوب ، لانهم شعب مختار ، ويؤكدون مقولة عمرها نصف قرن تقول ان الغجر ، حين تحين ساعتهم ،

وينتهي الناس البلهاء من افناء بعضهم بعضاً، باطلاقهم قوى عشواء، ينزلون من جبال تبيت، ويصبحون ينبوع حياة جديدة على الارض.

ويطلق الفجر على انفسهم القايأ مختلفة، كاولاد الطرقات، وشهود الزمان، وابناء الرياح لأنهم لا يركنون ابدأ الى مكان ثابت.

ان من يستقصي اخبار الفجر، يتضح له انهم قد انتظموا منذ امد بعيد في طبقات اجتماعية تختلف عاداتها وطرق حياتها. انهم يصنفون الى مجموعتين رئيسيتين: المانوش والروم.

يشكل المانوش قاعدة الهرم الاجتماعي عند الفجر. ويتكلمون لغة، تقربها من الالمانية نقاط تشابه عديدة. ويكثر من بينهم الموسيقيون وعازفو الكمان والغيتار.

اما الروم فينقسمون الى ثلاث فئات، او طبقات اجتماعية: اللوارا والتشوراترا والكالديراش.

يحتل اللوارا مبدئياً قمة الهرم الاجتماعي. ومن وظائفهم الرئيسية نقل اسرار الاجداد من الام الى ابنتها، وكذلك القوانين التي تسير عليها قبائل الفجر منذ فجر التاريخ. وكانت هذه الفئة تحصل على قوتها من الاتجار بالخيول، ثم ما لبثت ان تحولت ببطء الى الاتجار بالسيارات المستعملة. وهي تتواجد بكثرة في المانيا الغربية وهولندا وبلجيكا وفرنسا.

ليس من نقاط تشابه بين اللوارا والتشوراترا سوى تجارة الخيل، وفيما عدا ذلك، فان اعضاء هذه الفئة يفضلون المشاجرات على الكمان والغيتار، ويحبون التنقل اكثر من جميع اقرانهم، حتى انهم نادراً ما يبقون في مكان واحد اكثر من ساعات معدودة.

اما الكالديراش، فهم اقل القبائل تنقلاً، حتى ليعتبرهم البعض شبه حضر. ومن عاداتهم ان يقيموا في ضواحي المدن ويمارسوا فيها حرفهم اليدوية لبعض الوقت، ثم لا يلبث الحنين الى الرحيل ان يحملهم على شد رحالهم، لانهم هم ايضاً من "ابناء الرياح".

الجدير بالذكر ان للفجر، من حيث اتواء، والى اية طبقة اجتماعية انتموا، لغة مشتركة اسهمت كثيراً في الحفاظ على وحدة عميقة بين صفوفهم.

يقيمون عليهم رئيساً، يمكن تمييزه بوضوح من عصاه والازرار المذهبة على سترته. وهذا الرئيس يمارس سلطة قريبة من السلطة المطلقة، كما أنه يطلق الاحكام القضائية، ولا استئناف لحكمه.

ولضلاً عن ذلك، فانه هو الذي يبارك الزواج، وفقاً لعادات قديمة، تقوم على تقديم الخبز والملح للخطيبين، ومبادرتهم بالصيغة التالية: "عندما لا يبقى لهذا الخبز وهذا الملح اي طعم في فمكما، تكونان قد مللتما واحدكما الآخر" ثم يجرح معصمي الرجل والمرأة ويمزج دماءهما.

ومما يذكر أنه قد تردد الحديث في الستينات عن انشاء دولة مستقلة للفجر، وقد تدخلت هيئة الامم المتحدة في الموضوع... ولكن لم يسفر عن اية نتيجة. والسبب الذي اعطي عن ذلك، هو ان عشرات الالوف من الفجر عارضوا هذا المشروع.

لماذا عارض هؤلاء؟

يبدو ان الاجابة عن هذا السؤال تعد من الاسرار التي يحتفظ بها الفجر بشدة. ولكن ما يعرف بالتأكيد، هو ان الفجر، يعتبرون انفسهم: "ابناء الرياح". الشعب المختار.

يقول مثل عجري: "إذا قُطعت عجرياً إلى عشرة أقسام، فلا
تظنن أنك قتلتها. وإنما أنت في الحقيقة قد صنعت منه عشرة
عجريين".

رقصة العظام في مدغشقر

في مدغشقر تقاليد وعادات غريبة للغاية، من بين هذه
التقاليد نبش عظام الاموات من القبور، وحملها بعناية،
والرقص بها، وإقامة الولائم بهذه المناسبة.
ويقوم اقرباء الموتى الذين اخرجت عظامهم من القبور،
بالتحدث مع العظام. يسألونها عما حدث لها منذ ان توفي
صاحبها.

يعتقد سكان مدغشقر أن في هذا اليوم تتلاقى ارواح الموتى
بارواح الاحياء، وبالتالي من مغزى هذه الاحتفالات، ان
الموت ليس نهاية الانسان، وان هناك حياة ثانية تنتظره.
وجد الباحثون صعوبة كبيرة في الوصول الى كشف اسرار
معظم الاسر في مدغشقر، وان نصف السكان على الاقل، ما
زالوا يعتقدون بأن ارواح موتاهم تعيش معهم ولا تفارقهم.
وللقبائل في مدغشقر عادات غريبة في تكريم الموتى، كأقامة
أضرحة ضخمة فخمة باللغة النفقات.
وهناك قبيلتان فقط هما اكبر القبائل، وتشكلان نصف

السكان ، (٧ ملايين نسمة) تنبش العظام من القبور ، وتقيم لها احتفالات ومآدب وحفلات رقص .

وتعرف هاتان القبيلتان باسم ميريناس وبتسيلوس .

تنبش عظام الموتى عادة ، كل ثلاث سنوات مرة واحدة وسط رقص غريب . وتجري هذه الاحتفالات في خلال شهر آب (أغسطس) وايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اكتوبر) بعد ان ينتهي موسم حصد الارز .

تبلغ نفقات الاحتفالات بعظام الموتى مبالغ طائلة ، حتى ان بعض الاسر ، يبيع كل غلاله من الارز لتأمين مثل هذه الاحتفالات . ويدفن سكان مدغشقر مع موتاهم ، كميات كبيرة من الذهب والنقود .

يرتدي المحتفلون افخر الثياب واغلاها ثمناً . وتستمر كل اسرة باحتفالاتها مدة يومين . والاسرة الثرية تستأجر اكثر من فرقة موسيقية للعراف في خلال هذه المناسبات .

تقوم راقصات محترفات بتأدية رقصات بالقرب من العظام ، وكلما استمرت وقتاً اطول في رقصاتها ، كلما "ارتاحت" روح الميت . وفي اليوم الثاني من الاحتفالات ، يقدم كل فرد من افراد اسرة الميت نفسه الى العظام .

وتختتم الاحتفالات بلف العظام بقماش من حرير ، والرقص بها في الشوارع ، ومن ثم يعاد دفنها في الضريح نفسه . وفي بعض الاحيان يظل قريب الميت يرقص ويرقص حتى يغيب عن الوعي . ويضع بعض افراد القبائل مع العظام كمية من التبغ حتى تظل الروح مرتاحة .

يظل الحديث مع العظام محصوراً حول الاعمال الجيدة

والصالحة ، ويتجنب المحتفلون اي حديث سيء معها ، حتى لا تفضب روح الميت .

وتقضي التقاليد ان يدور اقرباء الميت ، وهم يرفعون العظام اربع مرات حول القبر قبل دفنها .

يضع السكان عادة سجادة فخمة في داخل القبر ، وبعد مرور بين ٣٠ و ٥٠ سنة يقوم السكان بجمع العظام كلها من الاضرحة ووضعها في ضريح كبير واحد .

ولعل اطرف ما في الامر ان السكان يعتقدون بأن الهدف الرئيسي من الزواج في مدغشقر ، هو ايجاد شخص يعتني بالآخر (الزوج او الزوجة) في حال وفاة احدهما ، والاشترار في رقصة العظام .

سيرى لانكا والخرس العجيب

لا يهبط القمر على الارض في سيرى لانكا. الناس هناك يعتقدون بانهم يتسلقون اليه على ظهور الفيلة ويقطعون في خلال ساعات قصيرة، حوالى ٤٠٠ الف كيلومتر. يحدث هذا في منتصف شهر "ايزالا" القمري، وهو الذي يقع بين آخر تموز (يوليو) واول آب (اغسطس).

هذه المناسبة السنوية تخصص لتمجيد بوذا، وهي على شكل كورال فريد من نوعه، يخرج فيه الناس من زمنهم، كما يقول كثير زعمائهم.

يخرجون امام بوذا، ويطلقون الصيحات التي تكرم الرجل الذي قال لهم: "كونوا كالعشب واملاؤا الكون بالهدوء والعشب، وجدتم هنا كي تكونوا في كل مكان".

ولهم لذلك يعتقدون انه سيأتي يوم، تختفي فيه الذئاب من الكون. ويبدأ زمن الطيور تلك الخارجة على موبقات الارض. كما يقول الكاتب البوذي الشهير "دوك ميهكونغ".

يستألف الموكب من ثمانين فيلاً، مجلة بالقماش النفيس، تحيط بها مجموعة من الموسيقيين والراقصين، والمنشدين

وحملة السياط والرايات والمشاعل، ويجوب الموكب في انحاء المدن في سيري لانكا.

تجدر الإشارة الى ان هذه الاحتفالات قديمة، ابتدعها في القرن الثامن عشر الملك "كيرتي سري"، ومنذ ذلك الحين تعرف "سيري لانكا"، ولمدة ١٥٠ ساعة متواصلة، بالغناء ورش الزهور. ثم يبادر المشاركون بعد ذلك الى "اكتشاف انفسهم" من خلال التحديق بمياه البحيرة الصافية، التي يطلق عليها بعضهم اسم "جوهرة آسيا".

تعتبر الليلة السادسة، الاهم في موكب "دالادا مالليغو" وهو اسم المكان الذي يحتفل فيه، والذي يضم الذخيرة الانفس في الجزيرة. وهي عبارة عن ضرس لبوذا وضع داخل صندوق خاص على شكل زهرة لوتس.

هذا الصندوق السابع في سلسلة سبعة صناديق محلاة بالاحجار الكريمة. لذلك يقع الاختيار على كبير الفيلة كي يتولى حمله وادخاله الى احدى غرف المكان المخصص للاحتفال، حيث يزينه رئيس القوم، ويغطيه بمعطف محاك من الخيوط الذهبية والفضية. ويجري تلبس ناييه بالذخاس وقوائمه بالخلاخليل المعدنية.

والتركيز على الفيلة بالذات يعود الى تلك الاسطورة التي تقول: ان الملكة مايا حملت ببوذا وهي تمتطي دثقلا (الفيل الصغير) مما دفع الشعب الى الاعتقاد ان هذا الحيوان يرمز الى النعمة، والى المعرفة في هذا العالم المتحرك والزائل.

لذلك يخلعون عليه الذهب والمخمل والحريز، قبل حلول الليالي الست، اذ يتولى نقل التعائيل الصغيرة والقديمة الى ساحة معينة كي يشاهدها الناس.

في الليلة الاولى يهبط الفيل الكبير سلم مكان الاحتفال، فيما يشعر الناس ان ساعة الصعود الى القمة دنت. وهو يسير على ارض مفروشة بالسجاد.

اما الاطار الهندسي للموكب فيتم على الشكل التالي: فيل وحيد يتقدم. يمتطيه الرئيس، يحمل عصا فضية، وتلحق به مجموعة الفيلة الملكية، فيما ترتفع اصوات الطبول "بإيقاعات مختلفة". ومن ثم يتقدم حملة الاعلام الذين يمثلون مختلف القطاعات برموزها المعروفة: اللوتس، البيغاء، الدب، النمر، الانسان، العصفور، ثم الفيل الاخير الذي يحمل الضرس.

بعد ذلك يظهر حملة المشاعل على صوت المزامير والابواق النصفية والصنوج. وتبلغ حماسة الناس اشدها على انغام الموسيقى، وتنشأ لديهم حالات مثيرة: صمت شامل، ثم صخب في ايقاع تبادلي ووسط كل ذلك، يتقدم الفيل الكبير، وعلى ظهره "الهودج" الذي تسطع حجارته الكريمة تحت اشعة القمر.

والواقع ان الفيلة تظهر تفهماً كاملاً للموقف. فهي تسير بشكل ايقاعي من دون ان تحرك سوى قوائمها. اما الرأس فيخفض امام الرمز الذي ينحني امامه سكان الجزيرة باكملهم.

حارس الضرس هو الذي يختتم كرنفال الليالي الست. محاطاً بالخدم، وذلك باعادة الضرس الى مكانه سالماً. ويتم كشفه كل مساء امام الناس الذين ترتفع شهقاتهم، وهم يشاهدون هذه "القطعة العظيمة"، التي وصلت الى "سيري لانكا" في القرن الرابع.

تقول احدى الاساطير ان اميرة خبات الضرس في جديلتها، وحملت معها من مدينة كالنجا في الهند بأمر من احد الامراء، تطوع الكثيرون لبناء مكان يستقر فيه الضرس، الذي يظل

يدور هكذا داخل سيلان حوالي القرنين، حتى تم أخيراً نقله إلى مدينة "كاندي". ورأى أهلها أن الضرس طرد البؤس من مدينتهم، لذلك قرروا تتويجه ملكاً عليهم منذ القرن السادس عشر، معتبرين أن فقدانه يعني دمار الجزيرة بأسرها.

ولا ينسى المواطنون تلك الواقعة الرهيبة التي حدثت العام ١٨١٥ عندما صادر ضابط بريطاني الضرس، وتوافق ذلك مع إسقاط الملكية التي تحدّر أفرادها من الأميرة صاحبة الجديلة. لكن ما لبثت بريطانيا أن أعادت الضرس إلى أهالي كاندي العام ١٨٥٠.

تبلغ تكاليف المهرجان حوالي مليون جنيه استرليني، وأحياناً تفوق هذا المبلغ بكثير، وتعتبر الليالي الست من أجمل الأيام في الجزيرة.

أريتريا... وعادات عربية

د. عرف الفراعنة أريتريا بأنها بلاد "بونس"، وأطلق الإغريق اسمها على البحر الأحمر، فكان أن دعي "سينوس ارتريوس" بحر أريتريا، وكانت مدينة "عدوليس" مركزاً تجارياً للعالم القديم، تحتفظ آثارها إلى اليوم ببصمات بطليموس الثاني في القرن الرابع ق.م.

في ظل الرغام من أن أريتريا تقع في المنطقة الاستوائية، إلا أن أغلب مناطقها تتمتع بجو ربيعي دائم، نتيجة للارتفاع الذي يبلغ مثلاً، ليصل إلى عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر في الهضبة الجنوبية. وبسبب الموقع الاستراتيجي الذي تتمتع به أريتريا، والمشرف على الممر المائي الذي يربط طريق الهند البحري وشرق آسيا بالبحر الأبيض عن طريق قناة السويس، جعل منها مهاباً لتجارة الشرق والغرب، كما جعلها هدفاً للغارات ومحط إظار الغزاة منذ أقدم العصور.

في المعروف تاريخياً أن سكان مملكة "أكسوم" الحبشية، التي نشأت في القرون الغابرة في هضبة أريتريا والتجراي، إنما كانوا من نازحي اليمن في عهد دولة سبأ وحميز، وبخاصة

بعد أن دمرت السيول سد مأرب المشهور، وتقل الفارحون حضارتهم إلى الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، ونظموا الزراعة على شكل مدرجات في سفوح الجبال على غرار نظام الزراعة في هضبة اليمن الخضراء. وكانت "أكسوم" حاضرة مملكتهم، ولا تزال المسلات المشهورة شاهدة على عظم هذه الحضارة التي شيدت في إريتريا وجزء من الحبشة.

تقع إريتريا جنوب السودان، ولها ساحل يمتد ٦٠٠ ميل على البحر الأحمر حتى جيبوتي، وخلف إريتريا تقع إثيوبيا. وهذا الموقع البحري الشاسع والمهم، هو الذي جعل إثيوبيا تلعب في إريتريا. ويؤكد الجغرافيون ممن زاروا إريتريا ودرسوا طبيعتها، أنه ليس من مكان آخر في إفريقيا حبتة الطبيعة بتنوع وتضاد في ظواهره الجغرافية-الطبيعية، التي وضعت على تقارب واتصال، كما هو في إريتريا.

السطح الإريتري يتكون من: صخور بلورية وأخرى مصفحة الجوانب ومتحولة الألوان، غرانيتية وأخرى نارية كبيرة الحبيبات، حجارة البازالت النارية السوداء، صخور البوتاس اللامعة، الحجارة الكلسية والرملية، العزل الخزفي والصلصال والطمي.

والتباين في المظاهر البشرية مثير هو الآخر للدهشة، فمن ناحية التسلسل السكاني تعتبر إريتريا موطناً لخليط من الشعوب، لكل منها نظامه الاجتماعي الخاص به، وهناك على الأقل عشر لهجات مختلفة، تبتدىء بالتجريدية والتجريديتين، إلى الدنكلية والبجاوية الحاميتين إلى البارية والكونامية السودانية، بالإضافة إلى لهجات مجهولة كلاساهو والبلين.

ويتفاوت السكان بين أوضاع الاستقرار والبدادة وشبه البدادة. يسكنون منازل متباينة، منها ذات سقوف مسطحة تسمى "هدمو"، أو على شكل دائري تسمى "أقدو" مع سقف مخروطي، واكواخ كالقباب بالنسبة للرحل وشبه الرحل، ويطلقون عليها اسم "داس" وهي مصنوعة من فروع أشجار، أو خيام من أشكال متعددة.

الإريتريون ضمن مجموعاتهم يتحطون بذاكرة تاريخية قوية. ويمكن أن يضاف أن الإريتري شديد الإحساس بخصائص البيئة المتفردة، التي تحيط به والخاصة ببلده.

المسلمون في إريتريا، هم في الغالب سكان المنحدرات الشرقية حيث تنتشر قبائلهم... الساهو والداكل المسماة "عقر" تسكن منطقة دنكاليا على شواطئ البحر الأحمر. ومعظم هذه القبائل من الرحل، وقبائل البني عامر والماريا والمشمع والحباب تسكن المناطق الغربية والشمالية الشرقية من إريتريا وأكثرها يعتمد الرعي وتربية الحيوانات، وتمتاز منطقتهم بالكثافة والثروة الحيوانية.

العادات العربية القديمة نفسها موجودة لدى مسلمي إريتريا، فهم يمجدون البطولة والمروءة والقتال والكرم، في بعض قراهم النائية، يمكنك أن تستمع إلى قصص مدهشة في دقتها عن تاريخ الإسلام والشخصيات الإسلامية الشهيرة، يرويها رعاة أو مزارعون أميون، وحين تسألهم عن مصدر معلوماتهم هذه، يجيبونك بأنهم تناقلوها من آبائهم عن أجدادهم. وفي الغالب يعيش هؤلاء الرعاة في خيام ومضارب.

عرف عن إريتريا أنها أول بلد في إفريقيا وصل إليه الصحابة، وعدد من الشخصيات الإسلامية الكبيرة، حين خرج

ما يقارب الاحد عشر شخصاً من اصحاب الرسول (صلعم) هرباً من بطش قريش الى السواحل الاريترية، وتوغلوا فيما بعد في مرتفعات اكسوم واستطاعوا مقابلة البخاشي، وشرح دينهم الجديد له. وكان ذلك في العام ٦١٥.

وفي عهد الخليفة عمر بن الخطاب، استعمل المسلمون جزيرة "دهلك"، وهي اكبر الجزر الاريترية في البحر الاحمر، منفى للمغضوب عليهم من الدولة، لبعدها وشدة حرارتها.

والساحل الاريتري شهد موجات متتابعة من نازحي الجزيرة العربية في القرن الثالث الهجري، لذلك يبدو الاريتري اكثر تأثراً بالعادات العربية والاسلامية من غيرها. وهناك بعض التقاليد في اساليب العيش، احتفظ بها الاريتريون من عهد الفراعنة، ويمكنك ان تلاحظ، وانت تدخل المتحف المصري، ان العديد من نماذج حلي نساء الفراعنة واحذيتهم وملابسهن مستعملة حالياً لدى النساء الاريتريات.

احتفظ الريفيون وسكان المرتفعات ببعض فنونهم الشعبية البسيطة من دون تطويرها. بينما ضيعت المدن الكبيرة تراثها القديم، ولم تقدم فناً حديثاً ذا سمة خاصة. الا ان الواعين من ابنائها اليوم يسعون لاستعادة وجهها الثقافي والحضاري الاصيل.

كوريا الجنوبية ورقصة المراوح

مثل اي بلد في جنوب شرقي آسيا، تحتفل كوريا الجنوبية بتقاليد جميلة وشائعة. وعندما تقف على برج "نام سان" وهو برج شامخ على جبل يقع جنوب العاصمة سيول ذات الملايين الثمانية، تشاهد المنظر المثير حيث تتزاوج الحضارات. وتشاهد بذهول ناطحات السحاب، جنباً الى جنب مع البيوت الخشبية التي اشتهرت بها دول جنوب شرقي آسيا.

تاريخ هذا البلد يرجع الى خمسة آلاف سنة، ولعل اكثر العهود ازدهاراً في هذا التاريخ الطويل، هو عهد حكم سلالة الملك سيلا ديناستي.

هناك اسطورة كورية تقول: ان هذا الملك كان محبوباً من شعبه، بحيث انتحر من اجله، ثلاثة آلاف منهم من على شرفة قصره الواقع على الشاطئ، في مقاطعة بيكتي التاريخية.

وعندما تدخل الى مدينة وتتعمق فيها، تقاجأ بسوق "نامدي مون" وهو ضيق وطويل ويتصف بطريقة عرض البضائع. اما دوائج البهارات التي تعبق في ارجائه والمنتجات التقليدية

المصنوعة باليد، فإنها تكاد تكون متشابهة، ولكن الشبه الأكبر هو الأزدحام.

الزائر المحظوظ هو الذي تتاح له في خلال زيارته، فرصة مشاهدة واحد من المهرجانات الشعبية التي تقام في الأعياد والمناسبات القومية.

أروع ما في تلك المهرجانات منظر الكوريين وهم يرتدون ملابسهم الحريرية المزركشة، وبخاصة الفتيات بلباسهن القومي ذي الألوان الزاهية.

من أطرف تلك المناسبات "يوم الألوان"، الجميع يصبغون أجسادهم بالألوان متعددة، ويسيرون في الشوارع في الوقت الذي يرشون فيه الأصباغ والماء على المارة.

والرقص الشعبي الكوري مدهش للغاية، ولكن رقصة المراوح هي الرقصة المنتشرة والتي تؤديها جميع الكوريات تقريباً. وفي هذه الرقصة تتجمع الفتيات في حلقات يحملن مراوحن المصنوعة من الورق المشمع والمزخرف بدقة، ويؤديين حركاتهن ببراعة وبتناسق ممتع مع حركة المراوح.

الزواج في كوريا له تقاليد، وعندما يصادف الشاب فتاة تعجبه، تبدأ التقاليد الخاصة بذهاب أهل الشاب لخطبة الفتاة، ثم يتم عقد القران. وفي حفل الزفاف يرتدي الشاب الملابس التقليدية وتلبس العروس الملابس الشعبية المزركشة. وإمام المدعوين يسقي العريس عروسه الماء بكفيه ثم ينحنيان لبعضهما بعضاً، وينحني العريس لأهل العروس في حين تنحني العروس لأهل العريس... ويذهبان إلى بيتهما الجديد.

ولكن هذه التقاليد لم تعد كما كانت في السابق، بل إن القليل

من العائلات تقوم بها. والشاب الكوري في الوقت الحاضر يقول بصراحة إن الحب هو رابطة بين شخصين، ولهذا فليس هناك ما يستوجب كل هذه الاحتفالات والتقاليد.

الهنود الحمر والخوف من الانقراض

قليل انهم من المصريين، ونسب آخرون اصلهم الى اسلاف
الذين تجوا من قارة اثلانتييس المفقودة.

مهما كان الامر فان اثنين لا يختلفان في هذه الحقيقة، وهي
انهم قبل ان يضع كريستوف كولومبس قدميه على ارض العالم
الجديد بالاف السنين، كان هناك انسان آخر، سبقه قادماً من
قارة اسيا، وانتشر في ربوع هذا الجزء من العالم، وقد ظنه
كولومبس هندياً لشبهه في الشكل والقسمات بينه وبين الهندي
الذي يعرفه الجميع.

والهنود الحمر انقسموا يختلفون فيما بينهم اشد الاختلاف،
من حيث القسمات واللون واللغة والعادات، باختلاف المناطق
التي يقيمون فيها، والتي تنتشر من المنطقة الشمالية عبر العالم
الجديد بكامله، حتى ادنى القارة الاميركية الجنوبية، عند رأس
هورن.

باحثون قاموا بعدة ابحاث حول اكتشاف اميركا، ونتيجة
لذلك طرحوا السؤال التالي: متى اكتشف الانسان اميركا؟ انه
الغز الكبير الذي ظلّ مثار حيرة العلماء، واحتدم النزاع بينهم
حينما عثروا على جمجمة لانسان بدائي في مدين. ووجدوا

ادوات، بقربها نقوشاً ثبت أنها هندية. وهي تحمل رموزاً تماثل ما هو محفور على جدران المدافن الفرعونية. وبين العلماء من يصرّ على أنه لا يمكن الوصول إلى حقيقة الإنسان الأول الذي وصل إلى أميركا، ما لم نتأكد من مكان الإنسان الأول الذي ظهر على الأرض.

في العام ١٩٥٩ عثر الدكتور لويس ليكي وزوجته على جمجمتين وأربعين سنّاً، مدفونة جميعها في حفرة في سهل سرنجتي. ومنذ هذا الحين انتقلت نظرية ظهور الإنسان الأول إلى إفريقيا. وابتعد تاريخ هذا الظهور بمقدار مليون سنة. واستناداً إلى مثل هذه النظريات التي تتعرض للتعديل تبعاً للاكتشافات الجديدة، من الصعب التكهن بمكان الإنسان الأول، أو وضع نظرية تعتمد على تاريخ أكثر بعداً، كأن يكون في أميركا مثلاً.

بين العلماء من يعتقد بنظرية تقول: إن من شاهد أميركا كان من المصريين والغينيين، وآخرون يؤكدون نظريات تثبت أن الأولوية للأغريق، أو للاتروسكان، أو للصينيين، أو للهندوس أو لليابانيين أو لأهل الباسك أو للآيرلنديين.

ومهما يكن من أمر، فإن قروناً طويلة مضت منذ اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد والسكان الأصليين في قارة أميركا الشمالية. هؤلاء شيدوا مدناً كبيرة بالأحجار على الارتفاعات العالية، وقنوات للري تمتد شبكاتها مسافات طويلة.

أنهم الذين ابتكروا للعالم الغربي أول حرف النقش والحفر، واستعانوا بلغة الإشارة والنظارة الشمسية، ومارسوا الطب مستخدمين أدوية الطبيعة. وهم الذين تغلبوا على مجاري الأنهار بقوارب "الكايك" المصنوعة من جذور الأشجار.

شعوب ماهرة، انحدرت من أصلاب الآسيويين، ممن عاشوا في العصر الجليدي، وانتشروا فوق أراضي أميركا الشاسعة، مستفيدين من الموارد الوفيرة لسد احتياجاتهم، وطوّروا ثقافتهم، وادخلوا التنويع والمرونة فيها، لكي تتفق مع طبيعة المناطق التي وصلوا إليها واستقروا فيها.

والهنود الحمر ينقسمون إلى قبائل عدة، هي في شكلها العام تنقسم إلى مجموعات بارزة تحتوي الإسكيمو، الأيروكوا، الأجونكيين الشيروكي، البويبلو، النافاجو والأباشي.

... ويعتقدون بوجود روح شريرة بوسعها التقلب على الروح الصالحة، يرهبونها ويتقون بأسها خشية أصابتهم بسوء.

للهنود أعياد مثل غيرهم، منها: عيد الذرة الخضراء، ويعتقدون بالكثير من الخرافات. فهم يحذرون ذكر اسم الهر للوحشي على مسامع أطفالهم. وكذلك ذكر قارة الحقل، لاعتقادهم أن ذكر أي منهما يؤدي إلى مرض الأطفال وموتهم.

كما يعتقدون في الرقم خمسة، بوصفه سراً من الأسرار ويعتبرون طود الذئب طاهرة، ويفرشونها في منازلهم.

يقدر عدد الهنود الذين كانوا يسكنون القارتين عند قدوم كولومبوس بنحو ٢٠ مليون هندي. وظل هذا الرقم يتقلص تدريجياً مع موجات الوصول الأوروبي، إلى أن قاربوا المليون لا غير في العام ١٩١٠، الأمر الذي أثار مخاوف علماء الاجتماع من انقراض عنصر نادر، هو الأميركي الأصلي.

ما زالت حقيقة الوجود الهندي في القارة الأميركية غامضة، وإن كانت الآراء تميل إلى تأييد النظرية التقليدية القائلة: أنهم

وصلوا عبر مضيق بيرنج الفاصل بين قارتي اسيا واوروبا.
حدث هذا منذ نحو ٢٠ او ٣٠ ألفاً من الاعوام. حيث كان
العصر الثلجي يسيطر على القارة الشمالية، والغطاء الثلجي يمتد
جنوباً فجعل من الكتلتين الضخمتين، اميركا الشمالية واوروبا
كتلة ضخمة متصلة من الاطراف الشمالية. واصبح المضيق في
الواقع بمثابة معبر متسع الاطراف، فلم يشعر الهندي وهو
منطلق وراء فريسته بأنه انما كان يعبر محيطاً يفصل بين
قارتين كبيرتين. وذهل الهندي لكثرة الصيد في البقعة الجديدة،
فسارع بابلاغ افراد قبيلته التي انتقلت معه الى ارض الهجرة
الجديدة.

تناقلت القبائل الهندية هذه الاخبار فأخذت بدورها تطوي
خيامها سعياً وراء الرزق الجديد، واستمرت جماعات الهنود
تتوافد على الهجرة، وظلوا يشقون طريقهم ميممين جنوباً،
واستغرق ذلك منهم ٢٥ الف عام منذ بدء هجرة الهندي الاول.

وبانحصار الغطاء الثلجي، وذوبان المعبر الفاصل بين
القارتين، انقطعت الصلة بين الهندي المهاجر وارض اجداده
في اسيا، ونسي هذه الصلة فعلاً بمرور الزمن.

وهناك احتمال ان تكون قبائل اخرى قد عبرت المحيط
الهادي، قادمة من جزر "الوشيان" بالقوارب التي كانوا قد
عرفوا استعمالها منذ زمن طويل. وان تكون قبائل اخرى قد
عبرت ايضاً المحيط الهادي من جزر البولينييز.

احد الرحالة الباحثين زار قرية هندية، ويقول بهذا الصدد:
في قرية هندية قريبة من مونتريال، قضيت يوماً كاملاً مع
قبيلة "الموهوك" المشهورة، واختلطت بافرادها من رجال

ونساء واطفال، وتذوقت اطعمتهم الغربية، وشاهدت
رقصاتهم التي اختلطت بقرع الطبول والغناء العالي.
ثم سئلت لي فرصة تبادل الحديث مع بعض افراد القبيلة.
ولفت نظري زعيم هندي يرتدي ثياباً زاهية ملونة، صنعت من
جلود الحيوانات وريش الطيور وزودت بانياب الحيوانات
ومناقير الطيور، وكل ما يرمز الى طبيعة الغاب، ببدايتها
وقوتها، وهم يعمدون الى التشبه بها متمثلين بشجاعة الحيوان
ومرونة الطيور وسرعتها.

...ويحذق بي الزعيم الهندي وهو يدخن غليون الطويل،
وينفسه عالياً، فيتصاعد الدخان الى اعلى الخيمة الهندية
الصغيرة في طقات، ويظل متتبعاً لها، وكأنه يطالع صفحة
معيّنة من الحاضر او الماضي، ولعله المستقبل، الى ان تتلاشى
طقات الدخان، فيطوي صفحتها. واسأله: من اين جئتم؟ وما
سر وجودكم على هذه القارة؟ يجيب:

اسلافنا قدموا من الشمال. رحلتهم لم تكن تقاس بمقياس
الزمن والقرون. هي رحلة للنفس كما هي هجرة للناس. اننا
إذا ما تساءلنا عن قصة حضورنا، يمكن ان نجيب: ان سكان
الارخبيل سوف يؤكدون انهم قدموا من قارة اسيا عبر مضيق
بيرنج الفاصل بين قارتي اميركا الشمالية واسيا، وذلك منذ ١٥
الف عام. المضيق لم يكن كما هو اليوم، كان جسراً جليدياً في
العصر الثلجي، الذي كان يغطي جانباً كبيراً من نصف الكرة
الشمالي. وهو لم يكن عقبة او حائلاً دون عبور قبائلنا القديمة
الى الطرف الشمالي من اميركا، قادمين من اسيا.

الهنود الحمر يعرفون اصولهم القديمة ومن اين اتوا، لقد
حددوا عالمهم ووضعوا النظام الذي يجب ان يسود بينهم.

ازدياد المتاعب:

حين وصل جون كابوت وغيره من المستعمرين الفرنسيين الاوائل الى مناطق كندا، نقلوا الى اوروبا حكايات خيالية عن الفراء الثمين، ومصايد الاسماك الغنية في هذه البلاد الجديدة. وفي العام ١٥٣٥ رست مراكب جاك كارتيه الفرنسي عند موقع التقاء نهر السانت لورانس بالمحيط الاطلسي، واستقل قارباً، ثم تسلق صخور الشاطئ الصخري حيث وضع نصباً خشبياً حفرت عليه علامات فرنسية.

وفي العام التالي كان يتسلق جبلاً آخر يتوسط موقع مدينة مونتريال الحالية، حيث نصب العلم الفرنسي معلناً الحكم الفرنسي لهذه المنطقة من العالم، وقد دام هذا الحكم ٢٢٥ عاماً حفلت بالاحداث التاريخية، الى ان انتزع الانكليز العلم الفرنسي من سارية قلعة مدينة كيبك، ورفعوا مكانه علمهم الانكليزي العام ١٧٦٣، وبه اصبحت البلاد جوهرة جديدة في التاج البريطاني.

دامت هذه الصورة ما يزيد على قرن من الزمان، الى ان حل الاتحاد الفيدرالي الجديد محل الصورة القديمة العام ١٨٦٧، ولم تعد علاقة البلاد بالامبراطورية العجوز سوى من خلال حاكم عام، وهو في الواقع اثر تاريخي لعهد انتهى ومضى.

وبالعودة الى الفترة الاخرى التي بدأت بوصول المستعمرين الاوائل، شعر الاوروبيون بقيمة الفراء الاميركي الكندي، وسعوا الى التبادل التجاري مع الهنود، وكان هؤلاء على استعداد لمقايضتهم الفراء بالخرز والخناجر الملونة والبنادق والبارود.

وشعرت كل قبيلة بقوتها بقدر ما تملك من سلاح وذخيرة، فسعت للقضاء على منافسيها في ميدان التجارة، وعمد بعضهم الى محاربة بعضهم الآخر، وكان ذلك بداية لسلسلة رهيبية من المذابح انتشرت بين القبائل الهندية، ولم يكن الاوروبي يتردد في تزويد القبيلة التي ينتقيها بالاسلحة بحجة معاونتها على سرعة الصيد، وبتقلب الحكام الفرنسيين والانكليز على الانسان الاحمر، ازدادت متاعب الهندي، واستغل الفرنسيون الحروب الدائرة بين الهنود، لكي يشقوا طريقهم الى قلب القارة، الى ان وصلوا الى البحيرات العظمى عن طريق الانهار العديدة.

وقدم مغامرون آخرون بحثاً عن الثراء، وشقوا طريقهم الى داخل القارة من دون اذن او ترخيص من الحكومة، فتزاوجوا من الهنديات، واقاموا في مستعمرات الهنود. واصبح هذا العنصر المولد مصدر نزاع كبير فيما بعد، بل ان ثورة عارمة قد اجتاحت المناطق الوسطى، اشعل نارها زعيم مولد يدعى لويس ريبيل.

غير ان الهندي ظل موالياً للفرنسي، ولم يكف عن حقهه على الانكليزي. ويبدو ان الفرنسي قد تفهم نفسية الهندي، فعامله كما يعامل الطفل الصغير، وزوده بالهدايا الملونة، ولم يحرمه من التردد على قلاعه وبيوته ومتاجره.

اما الانكليزي فلم يكن يفهم نفسية الرجل الاحمر، فهم للفرنسي لها، فمنعه من التردد على حصونه او حتى الاقتراب منها، وتمادي في عجرفته وصلفه فتجاهل تقاليد الهنود في مجالسهم، ولم يحترم محادثتهم في سبيل السلم، ولم يعن بتزويده بالهدايا كما فعل الفرنسي.

وعمد الفرنسيون تجار الفراء الى استغلال الفرصة، فشجعوا الهنود وحرصوهم على الثورة ضد الانكليز. وكان الهنود في الواقع على استعداد تام للعمل، حينما ظهر بينهم زعيم قوي يعرف في التاريخ باسم "بونتيك"، كان يملك من صفات الشجاعة والدهاء الشيء الكثير. فدبر الخطط لتدمير "هؤلاء الغزاة ذوي الوجوه الباهتة"، وكان يهدف من ورائها الى قتل الجنود وتدمير حصونهم وطردهم من البلاد. وقد ذاق الانكليز صنوف العذاب نتيجة لهجمات الهنود، الذين اعملوا فيهم السلب والنهب والذبح ومحاصرة قلاعهم فترات طويلة امتدت سنوات احياناً.

اثبت الهنود في مراحل تاريخهم الدموي دهاء ومكرأ منقطعي النظر، فضلاً عن صبرهم الطويل على تنفيذ المخططات التي يضعونها.

ولم تكن كل القبائل في حالة عدااء مع الانكليز، فقد كان من بينها قبائل موالية، ابان حرب الاستقلال التي خاضتها المستعمرات الجنوبية (الولايات المتحدة الاميركية فيما بعد) ضد الانكليز.

ومن اشهر القبائل الموالية قبيلة "الموهوك" التي ظلت على ولائها للانكليز، بل انها أثرت الانتقال الى كندا شمالاً، بعد انصار ظل الحكم الانكليزي عن الولايات المتحدة الاميركية، وما زالت هذه القبيلة تنعم بالحكم الانكليزي حتى الآن في كندا. وثمة زعيم مشهور من الهنود دعي ذات مرة لزيارة ملك بريطانيا، حيث اقيمت له المآدب والحفلات كان فيها موضع تكريم، وهو يخطر بين المدعويين بردائه الهندي والوانه ورياشه، من دون ان ينسى البلطة المتدلية من حزامه.

كانت تلك محاولة مجدية لكسب ولاء هؤلاء الهنود، وبخاصة تلك القبيلة التي تعد زعيمة لست "امم" من الهنود.

وعلى ذكر امم الهنود، فالجدير ذكره ان للهنود الحمر تراثاً وثقافات متعددة يمكن جمعها وتقسيمها ١٧ نوعاً، تختلف من حيث المنطقة الجغرافية واسلوب المعيشة. كما ان لغاتهم تبلغ نحو ١٥٠٠ لغة تتحدث بها ٣٠٠ قبيلة مختلفة اهمها: الايروكوا والموهوك.

حالة غضب:

اسئلة كثيرة تطرح حول وسائل معيشتهم، وما مدى اختلاط الهنود الحمر بالكنديين. هذه الاسئلة تثير الخيال، وبخاصة بالنسبة لمن لا يقيمون في هذه البلاد. وانما يشاهدون افلام رعاة البقر التي تصور الهندي على انه بدائي همجي متوحش، لا يعرف تقليداً ولا يوثق بعهوده، ويحق طرده وقتله اينما وجد.

هي صورة مشوهة كل التشويه. فلقد أثرت الحضارة الحقيقية في كثير من هؤلاء الهنود، فاندمجوا في الحياة الحديثة، بل ان صفة الاصل الهندي قد زالت وانتهت بالنسبة لكثير منهم.

غير ان هناك كثيرين ما زالوا يقاومون تيار الحضارة، ويرفضون وصاية الابيض عليهم. هؤلاء الافراد ما زالوا يقيمون في مستعمرات خاصة، اقررتها لهم الحكومة حيث يذاولون شعائرهم ويمارسون تقاليدهم الموروثة. داخل نطاق مستعمراتهم. وبعضهم طعم الاسلوب الهندي بلون محدد من الثقافة الحديثة. وما زالت بعض القبائل تحتفظ بالتقاليد

والعادات القديمة نفسها، والتي قد نشاهدها على الشاشة الصغيرة، مثل الرقصات المعروفة، وتلك المجالس التي يتبادلون فيها آراءهم السياسية.

الهندي الاحمر الكندي يعيش في مرحلته الراهنة في حالة غضب وثورة، لان الاراضي هندية وملك للهنود، وهذا ما يحاول الهنود وزعمائهم توضيحه للرأي العام، بمختلف الطرق العصرية مثل الصحف والتلفزيون.

والهنود ينددون بتكرار الابيض لمواثيقه وعهوده، ويلمحون الى ان كندا لم تكن لتوجد، لولا احترام الهنود للمعاهدات المكتوبة. ولولا ذلك لظل الهندي يحارب بكل الضراوة والشراسة.

كثيراً ما يشير الهندي الى فضله في قيام دولتي الولايات المتحدة الاميركية وكندا، فهو السبب المباشر في خلق الدولتين، فشعب الهنود هو الذي ارشد جاك كارتييه عبر نهر السانت لوارنس، وهو الذي ارشد المستعمرين الاوائل ودرّبهم على اجتياز المسالك والدروب حتى اكتشفوا مجاهل القارة بأسرها.

ويرجع الفضل الى الهنود في معرفة عدد كبير من المحاصيل الزراعية التي تنتشر في انحاء العالم، مثل الذرة والبطاطا والفول السوداني والفلفل والاناناس والكافور والعادة الصمغية المستخدمة في صناعة اللبان والطماطم، والعديد من انواع الحبوب والبقول والتبغ ومادة الكوكا ومادة الكاسكارا المليئة، وعشرات من المحاصيل والمواد التي تستخدم في كل مطابخ العالم ومعامله الطبية.

والهندي يرى نفسه احد افراد شعب مهزوم مغلوب على امره، شعب يشعر بأنه كان ضحية غزوات انسان دخيل ابيض، وقد ظل شعور البغض يتفاقم معه على مر السنين.

كما انه يشعر بوطأة المظالم التي يرتكبها الانسان الابيض تجاهه، فهو لا يستطيع، في بعض مناطق كندا، دخول اماكن معينة مثل الفنادق والمطاعم، انها مناطق محرمة بالنسبة له. والحكومة في معاملتها للهندي تعتبره مهزوماً اعتزل الخدمة، يقتصر له الاعانات بصورة مساعدات انسانية، ولا تطلب منه سوى ان يلزم عقر داره، اذا ما ابي الاندماج كلياً في الحياة العصرية.

وهو يشعر بخيبة امل مريرة ازاء اجحاف الابيض بحقوقه، وقد زجته الحكومة في مناطق محدودة في اراض معينة اختارتها له. وحرمت عليه ممارسة احتفالاته، واعتبرت تعليم لغاته الاصليه امراً مخالفاً للقانون. وهاجمت الثقافة الهندية، وانتهكت المواثيق المعقودة مع الهنود القدامى.

وكتب التاريخ المقررة للاطفال البيض هي الكتب الوحيدة التي تدرس لاطفال الهنود انفسهم. وهي كتب مليئة بحكايات القتل والذبح والخيانة، التي يقال ان اسلافهم قد ارتكبوها في مر العصور.

واسلوب الهندي في المعيشة امر لا تعترف به كندا، ولا تحمل اي تقدير، بعكس الحال في المكسيك مثلاً حيث تكسب الثقافة الهندية النسيج المسكيكي العام، ذلك اللون الجذاب المعروف بالهندي، وتجعل منها علامة من علامات الحضارة المكسيكية والتاريخ المسكيكي.

اما في كندا، فان الثقافة الهندية والتراث الهندي، لا محل لهما الا في زوايا المتاحف واقبيتها، ولزام عليك ان تقطع مئات الاميال لكي تقف على اثر محفوظ لهذا التراث، وهو يظهر في رقصاتهم التقليدية وازياتهم وتذكاراتهم واطفالهم الذين يزينون رؤوسهم بمختلف الاربطة والرياش.

لا نجد في كندا تاريخاً او تقويماً دقيقاً للهنود، وبخاصة في ما يتعلق بتقاليدهم وموسيقاهم واسلوب معيشتهم، بما يقضي على الصورة المشوهة التي تحتل اذهان الجميع من جراء الافلام.

اما مستوى المعيشة بالنسبة للهندي، فهو اقل بكثير من الحد الأدنى للمستوى العام في كندا، وهو لا يزيد في المتوسط على الف دولار في السنة. في حين ان المتوسط العام يبلغ ثلاثة آلاف دولار.

ولذلك يشعر الهندي باجحاف الحكومة له، ويشعر بأن كرامته مهدورة، وانه لا يتمتع بسائر حقوق الكنديين. والحكومة الكندية على بينة من الغضب الكامن في نفوس الهنود الحمر، وهي تعمل الى اجراء تعديلات في القوانين المتعلقة بهم.

الهندي لا يخضع لنظام الضريبة ولا يمكن الحجز على ممتلكاته. ولهذا فانهم يجدون صعوبة بالغة في القيام بالمعاملات التجارية لانعدام الضمانات في ايديهم، مثل الرهن العقاري.

الا ان من المزايا المتاحة لهم اعفاؤهم من المصاريف الدراسية، بما في ذلك مرحلة التعليم الجامعي.

يمكن تقسيم الهنود الى فئتين، احدهما تأثرت بالحياة العصرية واصبحت اكثر تقبلاً لها، والاخرى ما زالت منعزلة في مستعمراتها النائية، يعيش افرادها الحياة البدائية من دون استعداد لتقبل عناصر الحياة الحديثة.

الهنود الحمر في الامازون:

كان العمال وراء الآتهم الجبارة يقتلعون الاشجار، ويشقون وسط الغابة الكثيفة طريقاً طالما ظنّها الانسان من المستحيلات، فالغابة التي ستخترقها هذه الطريق صارت اشبه بالمكان الاسطوري.

انها مصدر وحي لكتاب قصص الاطفال الخيالية، فالخيال لا يحلو له ان ينسج الاكاذيب الجميلة، الا حيث لم يصل عقل الانسان بعد، وكم مغامر وطالب معرفة حاولوا اقتحام المكان في تنافسهم مع خيال الادباء، فغابت اخبارهم وتحول سرهم واختفاؤهم الغامض الى نصر جديد يحرزّه كتاب القصة، ويستلهمونه المغامرات التي كلما ازدادت وهماً، ازداد جهل الانسان لحقيقة الغابة.

فيما العمال يقتلعون الاشجار، ظهر فجأة من ورائها عدد كبير من الهنود الحمر الذين يبدو انهم لم يروا رجالاً بيضاً من قبل. بدت الحيرة وارتسمت علامات الاستفهام: شبنات ولحي؟ هذه مناظر لم يألّفها هنود اميركا، وعمرهم ما رأوا وجه نسان يغطيه الشعر.

وراح الرجال وهم بالمنات يهددون العمال شاهرين في جوههم اسلحة بدائية، لكنها كافية لاشاعة الخوف في

القلوب، علما بأن أوامر الحكومة البرازيلية تقول بكل بساطة: "لا تقتل ابداً وإذا كان لابد لك من الموت، فمت". وهي تمنع العمال من استعمال السلاح حتى لغرض الارهاب.

وقف العمال حائرين في امرهم ينتظرون النهاية. وفي كل لحظة كانوا يتوهمون أن آخر عهد لهم بالحياة على الارض قد حان. لكم توهموا أن يفاجئهم شعبان أو حشرة سامة، وتوقعوا أن يفترسهم حيوان غريب خارج من مجاهل الادغال، أو ربما من على صفحات الروايات الكاذبة. أما ينقص عليهم رجال مثلهم، بل الهنود الحمر بالذات وهم يتصورونهم في هذا العصر مسالمين، فهذا ما لم ينتظروه ابداً.

بدرت من احد العمال ملاحظة اسرّبها في اذن صديقه: "إذا كان البيض في الشمال قد فعلوا بهم ما فعلوه، فما نحن ببيض الجنوب ندفع الثمن". وتحركت يد هندي منذرة، فصمت العامل وراح ينتظر مصيره مستسلماً الى التعلق بالغيب.

وصدرت عن الهنود أوامر بالإشارة، تفرض على العمال أن ينتظموا صفاً واحداً على حافة الطريق التي شقوها، وبحركة آلية امتثل العمال لأوامر الحمر، فاقترب هؤلاء منهم وراحوا يتأملون وجوههم ملياً، مركزين الانظار على الشببات واللحي. وبرشاقة غير منتظرة راح الهنود يطلقون شببات البيض ولحاهم حتى وجد جميع العمال انفسهم بروجوه تظلو من وبرة. وحين توقر للهنود المنظر الذي يناسب ذوقهم ويسمح لهم بتذوق جمالية الرقص والفنون الجميلة، اصدروا أوامرهم الجديدة القاضية بأن يرقص البيض على انغام طبولهم.

ارتفعت الانغام وهب العمال يرقصون وهم يجهلون مصيرهم كل الجهل. وبعد ساعة من الرقص القسري بالنسبة

الى فريق، والعمتعة بالنسبة الى الآخر، راح الهنود الاميركيون يبدون استحسانهم حيال ذاك اللقاء السحري بين "حضارتين"، ثم امروا الفرقة بالتوقف عن الرقص ومضوا من حيث اتوا حاملين معهم مؤن العمال، وقاركين لهم ادوات العمل.

ومرت لحظة وقف في خلالها العمال لا يعرفون ماذا يفعلون. دارت الوجوه، والدهشة مرسمة عليها، ثم انفجر الجميع ضاحكين. تلك كانت اغرب هزيمة عرفتتها الحرب الدائرة منذ قرون بين البيض والحمر.

مضت ليلة من العمل المتواصل، والعمال لا يفكرون الا باستعادة احداث تلك القصة الغريبة، التي ما كانت لتخطر ببال كتاب الروايات الوهمية.

وفي صباح اليوم التالي عاد الهنود الحمر الى المكان نفسه. وما ان رأهم البيض حتى دبّ الرعب في قلوبهم. لكن الهنود جلسوا على حافتي الطريق يتأملون العمال ويدققون في حركاتهم لساعات، من دون أن ينبسوا بكلمة. وبعدما اشبعوا حشريتهم وتذوقوا مظهراً من مظاهر الحضارة الحديثة مضوا بصمت وهدوء.

وجود البيض بينهم من دون أن يكلف الاقتتاع رصاصة أو جريحاً أو قتيلاً. هنا يكمن الفرق بين غزاة الشمال البيض، وغزاة الجنوب، بين الغزاة القدامى، وغزاة هذه الايام.

الجرأة المفاجئة:

اخيراً، شاء الانسان ان يغامر فيتوغل الى قلب تلك الادغال، حيث يقيم حوالي مائة وخمسين ألف هندي احمر،

وحيث لا تزال الحيوانات الضخمة والافاعي والحشرات بانتظار ذلك المخلوق العجيب، الذي طالما حاولت ان تبيده فكان هو الاجدر بالبقاء.

لكن غزو الامازون يختلف كل الاختلاف عن الغزوات التي سبقته على القارة الاميركية. فعوض ان ينطلق الابيض المغامر من مبدأ اعتبار سكان المنطقة الاصليين اعداء له ومنازعين، صار يدرس مدى استفادة هؤلاء الاخوة في الانسانية من خطوته الجريئة، وكيفية اقناعهم بهذه الفائدة.

فادغال الامازون غنية بثروات معدنية ونفطية لا تقدر بارقام. والزراعة الممكن تحقيقها وتنظيمها فيها، من شأنها ان تؤمن معيشة مئات الآلاف من البرازيليين، فضلاً عن الامكانات الصناعية الضخمة المتوقعة هناك. وهذا ينعكس ايجاباً على حياة الهنود الحمر، فتمتزج حضارة اليوم بعباداتهم وتقاليدهم.

هكذا بدأ شق طريق "ترانزا مازونيكا" المبتدئة من الشمال الشرقي للمحيط الاطلسي، والمنتحية على شواطئ المحيط الهادئ عبر غابة الامازون التي لن يعود اسمها "الجحيم الاخضر"، بعدما امضت كل هذه المدة معزولة عن حياة المدن، التي عاشها عصرنا الحاضر.

والجراحة التي تتميز بها هذه الخطوة، تبدو مفاجئة نظراً الى ما عرفته المحاولات السابقة من خجل وتردد. فمن العام ١٨٧٢ حتى العام ١٩١٠، كانت منطقة الامازون لا تتصل بالغابة الا من وجهة واحدة، هي صناعة المطاط المستخرج من الاشجار.

ففي العام ١٨٧١ اخترع تشارلز غودير طريقة جديدة لاستخراج المطاط، وكانت الطلبات على هذه المادة في تصاعد، الامر الذي جعل هذه الصناعة تزدهر داعياً المغامرين الى مزيد من التوغل في الغابات. وظلت غابة الامازون تستهوي الصناعيين حتى العام ١٩١٠، موعد ظهور منافسين للمنطقة في مالايا وسوماترا، وانخفاض اسعار المطاط.

امام هذه الظاهرة تقلص عدد الساعين الى المطاط، وهجرت المناطق التي كان الانسان قد اكتشفها في الامازون، لتعود اليها النباتات المتوحشة وحياة الادغال.

وفي العام ١٩٢٧ عاد الانتعاش الى هذه الصناعة في الامازون، مع مجيء شركة فورد للمحركات التي انشأت مركزاً اختبارياً لاستخراج المطاط وتصنيعه. وبلغ مجموع المساحة المستثمرة ما يزيد على ثلاثين الف كيلومتر مربع. لكن المحاولة فشلت، واضطرت الشركة بعد الحرب العالمية الثانية الى التخلي عن منشأتها وارضيتها للدولة البرازيلية.

ان الكيلومتر الواحد الذي يتم شقه في الغابة اليوم، يعني اقتلاع ثلاثة آلاف شجرة ما عدا الشجيرات والاعشاب. وكلما تقدم العمال قليلاً، وصل مئات من السكان الراغبين في اتخاذ الغابة موطناً دائماً.

نتيجة لذلك، قامت جماعة من السكان الاصليين، معروفة باسم "الغوشو"، تحتج على تفريق عائلاتها بعضاً عن بعض، بحيث صار منزل العائلة الواحدة من "الغوشو" يبعد عن منزل الآخر بعشرات الكيلومترات. وكان التفسير الذي اعطي الى هذه الجماعة، ان وجود كل جماعة على حدة من شأنه ان يولد في

المنطقة تجمعات صغيرة تمتاز بالعصبية، ولا يجمعها بجاراتها اي رابط.

فالمشرفون على المشروع، يحاولون منذ البدء تجنب كل ما رواه التاريخ من قصص نشوء المجتمعات، ونشوء العلل معها. لا يعني ذلك ان كل الهنود يعيشون على تقاليدهم القديمة. ويزاولون طبهم البدائي، ورقصاتهم التقليدية، فان عدداً كبيراً من الهنود اليوم يزاولون مختلف المهن والحرف والاعمال التجارية والفنية، ومنهم اطباء ومهندسون وباحثون اجتماعيون ورؤساء اقسام في المدارس والمعاهد والكليات.

وفي الجامعات يوجد عدد كبير من الطلبة والطالبات الهنديات، يتمتعون بقدر كبير من الذكاء ويحصلون على تقديرات عالية، مما يدل على استعدادهم للتأقلم والاخذ باسباب الحياة العصرية بسهولة ويسر.

في مدينة مونتريال (كندا) يوجد عدد كبير من الهنود، يزاولون واجباتهم اليومية ببساطة كأى كندي عادي، وبالرغم من التزام الهندي الاسلوب العصري، فانه لا يزال يعتز بهنديته ويسعى دائماً الى الحفاظ على تراثه، وتخيل اساطيره القديمة مخافة ان تنقرض. وهو ينتهز فرصة اجازة نهاية الاسبوع للتوجه الى مستعمرة القرية لمزاولة رقصته التقليدية، ويظل يدور حول النيران الموقدة، بينما اصداقاه يلتقطون له فيلماً سينمائياً يشاهدونه معاً في شقة عصرية، في احدى ضواحي مدينة مونتريال، بعد ايام قليلة.

وهناك محاولات متفرقة لحياء التراث الهندي، فان عدداً من المدارس يعمد الى تشجيع الابحاث والدراسات البعيدة عن

المبالغة. ومحطات التلفزيون بدأت تهتم باذاعة البرامج الثقافية عن الهنود. كما تنظم الرحلات المختلفة لزيارة مستعمراتهم، والتعرف على الهندي في محيطه في جوف من الصداقة والتقارب.

وهذا كله لم يمنع احد زعمائهم، في حديث تلفزيوني، من التهديد بأنه في حال عدم احترام الابيض للهنود المبرمة بين الطرفين، والتخلي عن محاولات اعتبار الهندي مواطناً من الدرجة الثانية، ان الهندي يشعر بأن واجبه نحو اسلافه وارضه ان يحمل السلاح للمقاومة والكفاح، حفاظاً على حقوقه الطبيعية.

”يوم البحر” في جزر اولاند

”إننا شعب واقعي . ولهذا تستمر الحياة كما ترى . وبالرغم من هذه الاجواء التي خلقتها الطبيعة ، يمكن ان تقول إنها تشبه الحلم ، ولكن عندما تملك الحلم نفسه ، فأنت واقعي جداً .”
كان يقف على صخرة جرداء يغسلها البحر ليل نهار وهو يتحدث . انه احد سكان جزر اولاند (تقع في البلاد السكندنافية) ، مديد القامة ، وعيناه تتجهان الى هناك ، تراقبان هذه المجموعة من اهل اولاند يحملون المشاعل ، بشياهم المزرکشة ، ويتجهون نحو البحر .

وعبر امتار قليلة تناثرت جزر عديدة ، تزيد على ستة آلاف جزيرة ، يحتفل سكانها كل عام ”يوم البحر” . يرقصون ويفنون ثم لا تلبث ان تصل مجموعة اخرى الى المكان نفسه ، ترتدي اقنعة غريبة تشبه رؤوس حيوانات غريبة . ومن بين هذه المجموعة تبرز فتاة ، يحملها خمسة اشخاص ، يقودهم شاب مقنع يحمل رمحاً مزخرفاً باصداف البحر ، ثم تلقى الفتاة في البحر ، ويسود صمت عميق ، وتظهر الفتاة بعد برهة من تحت اقدام صخرة تشبه كهفاً ، فيتعالى الصياح والصراخ ويبدأ

الرقص من جديد حول الفتاة، التي تجلس على صخرة تحديق في البحر.

إن الاحتفال على هذه الصورة، رمز الى عادات اهل اولاند في التاريخ السحيق، عندما كانوا يقدمون شخصاً الى البحر في كل عام. هذا المجهول الغامض الذي ليس له حد.

كان البحر احد رموز الجزيرة التي كان اهلها يعيشون على صيد حيواناته. وعن طريق الصيد عرفوا مغامرات هي جزء من مغامرات اجدادهم الفايكنغ، الذين اربعوا بريطانيا وسواحل الشمال. وكانت سفن الصيد تصل الى حدود البحر ذلك المجهول، الذي كثيراً ما كان يغضب فيبتلع عدداً منهم. وعند الغضب، كان عليهم ان يقدموا له الاشخاص ليهدأ ويرضى. فهو المستبد الطاغى، يعتد سلطانه الى حيث اللانهاية.

وليس من قبيل الصدفة اذن ان يبقى هذا الرمز حياً في مثل هذه الاحتفالات السنوية، التي تنتهي عادة بزرع عمود مزخرف على شاطئ الجزيرة في ميناء مدينة "ماريهام"، وهي تعتبر مقر حكومة اولاند الرسمي.

لسكان هذه المدينة عادات وتقاليد غريبة، فعلى مقربة منها تقع المقبرة التي تعتبر اطراف المقابر في العالم، ففي كل قبر ينام قبطان يحمل امجاده الخاصة.

قد لا تجد قبراً واحداً يحمل غير لقب "قبطان" اذ ليس من اللياقة، على الاقل، ان يموت واحد من اهالي "ماريهام" ولا يكون شيئاً ما.

عرفت جزر اولاند عربياً هو الادريسي المؤرخ والجغرافي

الشهير، الذي زارها في اوائل القرن الثاني عشر، وقد شاهد الادريسي احدى هذه الاحتفالات الغريبة مصادفة، فكتب عنها من دون ان يفهم مغزاها.

يقول "جونى هولمبرغ" مؤلف كتاب تاريخ جزر اولاند: إن اول من اتى على ذكر هذه الجزر هو الجغرافي العربي الادريسي الذي رأى المحاربين في ذرى "كولمار" احدى جزر اولاند وهم يحرسون هذه الجزر ويلقون بالمشاعل، واعتقد ان ذلك تحذير لاهل الجزيرة من خطر قادم عبر البحر.

واذا كانت اولاند قد تحولت الى جنان بفضل ما اصفته عليها الطبيعة من جمال آخاذ، فهي تسلم من المشادات والمشاحنات السياسية. اذ كانت الى زمن موضع نزاع بين فنلندا والسويد حتى انتهى هذا النزاع الى عصبة الامم، التي اقرت بتبعيةها الى فنلندا العام ١٩٢١، على ان تحتفظ بحيادها، ويتمتع اهالي اولاند، البالغ عددهم ٢٤ الفاً، بحكم ذاتي وبرلمان خاص.

يتكلم جميع السكان اللغة السويدية، لانهم سويديون اصلاً وثقافة، وهم احفاد السويديين الغزاة الذين احتلوا الجزر منذ حوالي خمسمائة سنة. وتعتبر اولاند حالياً "الريفيرا" بالنسبة للسويديين، الذين يأتون اليها ليقضوا اشهر الصيف وعطلة نهاية الاسبوع.

اثر النزاع السياسي على اهالي اولاند، فجعل منهم شعباً من اكثر الشعوب السكندنافية تعصباً لوطنيته، ويحتفظ كل اولندي في بيته بكتاب يحمل في صفحته الاولى: شجرة العائلة وصوراً فوتوغرافية لبית اجداده القديم وببته الحديث.

وبالرغم من تبعية اولاند السياسية لفنلندا، فهي تتمتع

بحكومة داخلية لها الحق في سن القوانين وفرض الضرائب التي تعود في النهاية الى خزينة حكومة فنلندا.

وفي اولاند مجلس نيابي يضم ثلاثين نائباً ينتخبون كل ثلاثة اعوام، وهم ينتخبون بدورهم حاكماً عاماً لاولاند.

وهناك حاكم آخر يمثل الحكومة الفنلندية، وتكاد سلطاته تكون رمزية وتنحصر هذه السلطة بالاشراف على دوائر الضرائب، ويفتح هذا الحاكم البرلمان بالنيابة عن حكومته، وله الحق في ان يحل المجلس الذي له هو ايضاً سلطة التأثير في تعيين الحاكم نفسه.

للجو الرائع، والطبيعة الساحرة تأثير بالغ على عادات اهل اولاند وتقاليدهم، هذه التقاليد اوحى للسكان باساطير، اخذت كل جزيرة منها اسطورة استحال مع الزمن الى رمز.

ولقلعة "ماريهام" قصة تروى: ماريهام حفيدة قيصر روسيا الكسندر، جاءت الى اولاند، يوم كانت فنلندا دوقية روسية. وقد احضرت الاميرة الحساء معها بجعة سوداء كانت لا تفارقها ابداً.

وبينما كانت الاميرة على الشاطئ، جاء بحار شاب من احدى جزر اولاند، وطلب منها ان ترافقه على سفينته لترى جمال العالم، وعشقت الاميرة البحار، ودفعها حب المغامرة الى مغامرته، فاخفت معه ولم يعد احد يسمع عن مصيرها.

وبقيت البجعة تروى شواطئ الجزر بحثاً عن الاميرة، وترقص رقصات الابتهاال الغريبة. ويقول اهل اولاند ان رقصة البجع التي تؤديها فتيات اولاند على الشاطئ، انما هي رمز لوفاء هذه البجعة التي كانت تحاول، من خلال رقصاتهما، ان تعانق روح الاميرة في العدم.

وقلعة ماريهام التي عاشت فيها الاميرة قصة احلامها، تنتظر فارس البحر لكي يحملها الى المجهول قد اختفت كذلك، ولم يبق منها سوى مجموعة من الحجارة ومدفع ضخم. وذلك بعد ان دمرتها البوارج البريطانية في حربها مع روسيا. وامام هذه القلعة التي تعانق في صمتها اصوات البحر ونداء الجزر التي تمتد من حولها، رست سفينة الادريسي ذات يوم في القرن الثاني عشر.

حماسة الشعب الاولاندي الى ثقافته السويدية ولغته وتاريخه، تدفعه الى دعوة كل غريب لكي يقص عليه احلامه ومغامحه، وفي كل جزيرة دعوة للغريب لكي يقضي ليلة على الشاطئ يحلم فيها بالاستحيل.

وعندما تطوف بك الباخرة على هذه الجزر في طريقها الى هلسكي او استوكهولم، تشاهد الاولانديين منهمكين بزراعة الارض والاعتناء بالاشجار، ذلك ان الزراعة والسياحة هما المصدران الرئيسيان للعيش على هذه الجزر.

تشبه هذه الجزر، في وضعها، امارة موناكو على شاطئ المتوسط، وهي، كانت امارة ايضاً في السابق، وحفيد ملكها، او اميرها يعمل في الصحافة.

واذا كان اهل اولاند قد احتفظوا باساطير اجدادهم واستخلصوا منها رموزاً لفرح الحياة، فقد ظلت هذه الجزر، عبر التاريخ، مصدراً لاساطير غريبة، وقد نقل الادريسي عنها بعضاً من هذه الاساطير.

واذا كان ما شاهده الادريسي حقيقة في ذلك الوقت، فانه الان اسطورة يتناقلها الاحفاد عن آبائهم واجدادهم، ويقف لزاثر على الشاطئ يتطلع الى البحر الذي يضيء طوال اشهر

الصيف، اذ لا تكثر الشمس تقارقه سوى ساعتين في خلال
الاربع والعشرين ساعة، أما في الشتاء، فهو الظلام الدامس،
حيث لا شمس في النهار او الليل، ومع ذلك تضحك جزر اولاند
متباهية بجمالها، ويتضاحك اهلها فعلى ارضهم السلام، وفي
حياتهم الفرح وفي اساطيرهم حكايات لتاريخ مضى

تايوان بلد الاعياد والمهرجانات

ليست تايوان اكثر من جزيرة يبلغ طولها ٣٩٤ كلم ٢،
يسكنها اقل من عشرين مليون نسمة. وتقع على حدود الصين،
الفيليبين وكوريا الشمالية. وتتميز بعادات وتقاليد، ورثتها من
الاجداد القدامى. ومن اهمها اليوم الوطني الذي يحتفلون فيه
بمناسبة ازاحة حكم اباطرة "المانشو" في ١٠ تشرين الاول
(اكتوبر) من العام ١٩١١.

تكثر الاساطير والحكايات الشعبية فيها ومن اهم الحكايات
التي وردت في الاساطير القديمة ان "التنانين" كانت منذ عهد
بعيد تتواشب وهي ترقص وتغني مرحاً في مياه الشاطئ
الصيني، وتقلب في صخب رمال القاع. ومن هذه الرمال
المقتلعة اقامت التنانين جزيرة على شكل سمكة اسطورية ملونة،
تستلقي في هدوء على مياه بحر الصين.

حكاية التنين والرقص والغناء، هي ابرز العروض التي
يشهدها الزائر في خلال المهرجان الكرنفالي الكبير. يبدأ

العرض باقترب التنين الرمزي الضخم باللوانه الزاهية محمولاً على الاعناق والاكتاف، يسيطر على الساحة بين انغام الموسيقى الصاخبة.

طول التنين البلاستيكي المنفوخ بالهواء لا يقل عن مائتي متر وهو يتحرك راقصاً صاخباً، ويحمل اطرافه اكثر من مائة من الراقصين في الملابس التقليدية بدورون ويقفزون، وهو يتلوى بين صفوفهم بطريقة مثيرة، في رقصات غاية في الرقة والبراعة والتناسق والتناغم والجمال.

ومن فم التنين تنطلق نفثات دخانية متباينة الالوان، كأنها انطلاقات أسنة اللهب المستعر، يرسلها في خلال رقصته المجنونة الثائرة. ولا تهدأ ثورته الا حين تحيط به مواكب الزهور التي تضم الفتيات اللواتي يرقصن في ازياء التنانين الصغيرة، وسط الورود والرياحين الزاهية الالوان.

وباستمرار العرض يتذكر الناس صورة التنين، كما نعرفها ونراها مرسومة او منحوتة في مختلف المعالم التاريخية، وفي رسوم الفخاريات الفنية وعلى جوانب الطائرات والفوانيس الورقية التي تنتشر في كل مكان.

اما في مهرجان الزهور والالوان فتقدم فتيات في ازياء متباينة الالوان، وتنقسم الى عدة مجموعات، كل مجموعة بلون خاص، يحملن الورود او البالونات والاعلام او المراوح، ويتلاعبن بها في تشكيلات بديعة، ينتهي موكبهن بزهرات في زي الفراشات تتراقص اجنحتهن الحريرية المفتوحة ذات الالوان الزاهية. وتطلق آخر مجموعة منهن باللوناتها الملونة لتطير فتغطي سماء الساحة متراقصة هي الاخرى في تناغم وتنسيق غاية في الابداع.

ولان تاوان بلد الاعياد والمهرجانات، فان الاحتفالات تتكرر في المهرجان الغنائي الموسيقي الشعبي. ويشاهد السائح عروضاً استعراضية، تحتوي على الكثير من فنون المرح والتسلية.

بعض العروض تقدم العاباً تنكرية تمثيلية فكاهية، يشارك فيها الاطفال، من بينها مشاهد لمجموعة من الصغار، وقد صبغت وجوههم بخطوط ذات لون احمر زاه، لتمثل اشكالهم هيئة القروء في القصة الاسطورية القديمة "رحلة الى الغرب"، حيث يقدمون اعمالاً تمثل القوى الخارقة.

وضمن العروض تقدم رقصة الاسد الفولكلورية التقليدية. يقدمها رجال يدخلون في جسم لاسد رمزي، يؤدي كل منهم ببراعة تامة وتناسق حركات الاسد الحقيقية، حين يقرقع بغمه ويطبق اسنانه ويصدر الزئير والصيحات التي تثير اعجاب المشاهدين.

وينتهي الحفل بمشهد من اجمل المشاهد يؤديه صغار لا تتعدى اعمارهم الرابعة، يعرضون قصة الصيادين الذين جاءوا ينصبون شباكهم لاصطياد العصافير، ولكنها تتجمع وتتكامل معا حتى توقع الصيادين في الشباك.

احتفال آخر له قيمته، هو احتفال اول السنة القمرية، في ذلك الوقت يتوقف كل شيء، فالاستعدادات قائمة في كل بيت، في الليلة الاخيرة من السنة المنتهية.

وفي خلال الايام السبعة يكون كل انسان مشغولاً بتنظيف البيت واعادة صباغته وتلوينه، وبانجاز كل المشتريات والاطعمة المطلوبة من السوق، وتزيين الغرف بالازهار والورود.

عند غروب شمس الليلة الأخيرة تجتمع العائلة كلها داخل البيت، بينما تكون جميع الابواب قد ختمت بالشمع والورق الاحمر لمنع ثروة العائلة من الهروب. وتبدأ المأدبة الكبيرة التي تكون قد اعدت خصيصاً لهذه المناسبة.

قبل تناول الطعام يحضى كبير العائلة رأسه، ويتبعه الآخرون لتقديم تحية التكريم للأسلاف. وعندما ينتصف الليل تجري ازالة الاختام عن الابواب لاستقبال الآمال والتمنيات الطيبة للعام الجديد. ثم تنطلق الألعاب النارية لتغطي السماء وتظل مستمرة حتى الفجر. ذلك هو اليوم الوحيد من السنة الذي تظو فيه جميع الشوارع من الناس، لوجودهم داخل البيوت، والذي ينتهي عادة بجلوس رب العائلة لتلقي تهاني جميع افرادها، ويتلقى الصغار منه هدايا العيد.

وشمة عيد آخر كانت تتعطل فيه الاعمال لاسبوع او اسبوعين، بمناسبة اكتمال القمر في اول شهور السنة، حيث يجري مهرجان الفوانيس الملونة التي تزين بها الشوارع والبيوت.

لا يكاد يخلو اي احتفال او مهرجان في تايوان من علاقة مباشرة او غير مباشرة مع اسطورة تروى. ومهرجان وسط الخريف يكاد يكون صاحب اكبر كمية من الاساطير الرومانسية، التي تروى عن القمر والطعام الرئيسي الذي تقدم في خلاله "كعكة القمر"، متباينة الاشكال، بعضها حلو وبعضها مالح، ولكنها محشوة بالفواكه والجوز والبندق، والتذوق من كل صنف منها اجباري على الجميع.

في احتفالات الربيع تغلق جميع المحلات في تايوان لمدة

اسبوع، ويتمثل المهرجان التقليدي في تبادل الرسائل الحمراء المسماة "هونغ باو" وفيها هدايا نقدية للاصدقاء تتباين حسب تصنيفات الحظ التي ترفق باوراق صغيرة. ولكن اسوأ ما يمكن ان يقع فيه احدهم هو ان يصله رقم ٤، فهو شؤم على صاحبه لأنه يمثل كلمة الموت.

اما مهرجان قوارب التنين فهو نوع آخر من الاحتفالات الشعبية في تايوان. يجري هذا المهرجان في اليوم الخامس من الشهر القمري الخامس. في ذلك اليوم تجري سباقات القوارب المزخرفة بالوان التنين، في الانهار التي تخرق مختلف المدن في تايوان.

ان هذا الاحتفال يقام جرياً على تقليد قديم يرتبط باسطورة شعبية تحكى: ان طالباً موهوباً اسمه "شويوان"، في القرن الثالث، لم يحظ بتكريم الامبراطور لمواهبه، فانطلق الى النهر حيث اغرق نفسه... واسرع الناس الى قواربهم يحاولون انقاذه وانتشاله ولكن عبثاً، اذ كان قد اختفى في اعماق المياه. وظل الناس كل سنة يستقلون القوارب ويتسابقون في الانهر في ذكرى تلك المناسبة.

ذات يوم ظهر "شويوان" في الحلم لاحد الفلاحين يستجدي طعاماً. من بعدها ظل الناس يلقون حبات الارز في النهر من اجله. وبعد فترة ظهر "شو" في حلم آخر وهو يقول ان الاسماك تلتهم الارز الذي يلقي اليه، وطلب ان يلقي الارز في لغافات من اوراق شجر الخيزران مربوطة بخيوط متينة.

وهكذا بدأ الناس يصنعون لغافات الارز التي يسمونها "تزونغ تزي" ويلقونها في النهر، في مثل ذلك الوقت من كل عام، حيث تجري في الاحتفالات سباقات زوارق التنين النهري.

كذبة اول نيسان بين بريطانيا وفرنسا

اعتاد الناس ، في كل انحاء العالم ، على الكذب والتكاذب ، في اول نيسان (ابريل) مزحاً ودعاية ، وهي عادة قديمة جداً لم يعرف بالتحديد تاريخ ولادتها ، ولكنها تطورت مع الايام وصارت من التقاليد المحببة التي تأتي ، مرات صغيرة بيضاء ، ومرات تأتي سمجة قاسية .

يقول احد كبار الفكاهيين الفرنسيين : " ان هذه العادة في طريقها الى الزوال ، وان احفادنا قد يتدهشون اذا حدثناهم عنها . لأنها ربما تكون اختفت تماماً ، فمئذ مائة سنة او اكثر كان الناس يتخذون مواقف الحذر والترقب ، باقتراب الاول من نيسان (ابريل) . وكانوا يضحكون في قرارة نفوسهم من الخدع التي يعدونها .

غير ان الاجواء الفاتمة والمخيمة على العالم اليوم ، نتيجة التضخم وارتفاع الاسعار والبطالة وغلاء المعيشة وغيرها ، جعلت الناس يتخلون عن اجواء المرح ويتلهون بمشاكلهم ومتاعبهم الحياتية ، خصوصاً وان كذبة نيسان (ابريل) تتطلب خيالاً واسعاً ومهارة ، وقد ذهب بعضهم الى اعتبارها من انواع القنون القائمة تضحك العالم كله على حساب بعض

لاول نيسان (ابريل) في التاريخ، جذور عميقة مغلقة في القدم، لا يظن الحديث عنها من بعض الطرافة والمتعة والفائدة. وقد تضاربت في اصلها الاقوال والروايات، ومنها ما يفيد بأن ملكة من ملكات بابل القديمة، امرت بان يكتب بعد موتها، على قبرها الذي اعدته في حياتها الى جانب باب المدينة، هذه العبارة: "يجد المحتاج في قبري هذا مالاً يسد به حاجته اذا فتحه في اول نيسان (ابريل)". ومرة فترة طويلة من الزمن، ولم يقدم اي انسان على فتح هذا القبر، الى ان ظهر داريوس الفارسي، فأمر بفتح القبر، واذا به يجد في داخله رقاً من نحاس، وقد كتب عليه ما يلي:

"...ايها الداخل الى هذا القبر، انت رجل وقح طماع، عطش الى نهب المال، ولأجل اشباع نهمك اثبتت تقلق راحتي في نومي الابد، مفتعماً فرصة اول نيسان (ابريل). ولكن خاب ظنك وطاش سهمك، فلن تنال من قبري، الا نصيب الاحق المعنوه".

وهناك من يعيد كذبة نيسان (ابريل) الى اصل هندي قديم جداً، وكانت تتم هذه الكذبة في خلال عيد يسمونه: "هولي" ويحتفلون فيه "بالانقلاب الربيعي"، ويمتد حتى آخر ايام آذار (مارس)، فاذا جاء اليوم التالي، وهو اول نيسان (ابريل) شيعوه بتبادل الهدايا القافهة، والمقصود بها التهمك والسخرية.

ولكن الرواية القرية من الحقيقة تقيد، بأن هذا التقليد ولد في انكلترا في الفترة الواقعة ما بين القرنين العاشر والحادي عشر. وقصة ذلك ان السنة في بعض البلدان الاوروبية كانت

تبدأ في ٢٥ آذار (مارس) حيث تنظم احتفالات ضخمة تستمر لمدة اسبوع، وتنتهي في اول نيسان (ابريل)، وكانت هذه الاحتفالات تقابل بالسخرية من قبل الفئات الاخرى التي كانت لا تعترف به ٢٥ آذار (مارس) كأول يوم من ايام السنة. وتعتبر هذه الفئات عن استخفافها بهذه الاحتفالات في ارسال علب هدايا فارغة للمحتفلين، او بارسال التهاني الطريفة التي تحتوي على عبارات مرحة مليئة بالمداعبة.

وفي العام ١٥٨٢ وضع غريغوري الثالث عشر فكرة التقويم الذي يبدأ السنة في اول كانون الثاني (يناير) وينتهيها في آخر كانون الاول (ديسمبر). ولكن بقي تقليد اول نيسان (ابريل) محتفظاً بشبابه وقوته، وما كاد القرن الثامن عشر يسفر عن وجهه، حتى صار هذا التقليد شائعاً مألوفاً لدى كل الناس، وبعد ان كان مقتصرأ على النبلاء والاشراف، وغيرهم من كبار القوم.

لم يعرف هذا التقليد في روسيا قبل العام ١٧١٩، زمن بطرس الاكبر، قيصر روسيا. فقد امر القيصر بصنع قبة عالية من خشب السديان والقش، وطلاها بالزفت والشمع. ولما اصبح اول نيسان اشعل النار فيها، فاندلعت السنتها الى السماء، حتى توهم الناس ان المدينة تحترق، فتراكضت الجموع مذعورة في حين ان الجنود كانوا يصدونهم قائلين: يا مجاذيب، اليوم اول نيسان (ابريل).

اما في فرنسا، فقد عرفت كذبة نيسان (ابريل) او سمكة نيسان (ابريل) قبل العام ١٨٢٨، حين ارسل احد الشعراء قصيدة الى حبيبته اثبت فوقها عدة اشربة حريرية ناعمة، ذات الوان مختلفة متباينة وهي على التوالي: اخضر، بني، وردي،

ازرق، ابيض، اسود، اصفر، وكتب تحت الاشرطة:
"اذا كان قلبك مشرقاً فارسلي الي الشريط الاخضر."
اما اذا كان قد شغل بغيري فارسلي الي الشريط البني.
ومن المحتمل ان الغرور قد اصابك فمللتني، فشريطي اذن
هو الوردي.

اما اذا كان حبك مجرد سراب فارسلي الي الشريط الازرق.
واذا كانت نهاية حبنا بداية زواج، فانا ارى مستقبلي هو
اللون الابيض.

اما اذا فقد الامل بي الى الابد، فابعثي الي بالشريط
الاسود. واذا كان هناك من ينزعني من قلبك فاللون الكلاسيكي
لذلك هو الاصفر.

واذا سألت من انا اجيبك:

الذكي جداً. وتستطيعين ان تعرفي ذلك من سر الاشرطة.
ولكي لا تظنن اني اسخر منك، فان اسمي هو "سمكة نيسان"
(ابريل).

مع توالي الايام، صارت هذه الرسالة تقليداً بين الشباب
والشابات في فرنسا، يتبادلونها في اول نيسان، لمعرفة حقيقة
مشاعرهم تجاه بعضهم بعضاً.

والمفروض بعد استلام الرسالة ان ينزع المرسل اليه احد
الاشربة المذكورة، ويعيده داخل رسالة مغلقة الى المرسل،
الذي يفهم حقيقة مشاعره نحوه من دلالة اللون.

وهناك من يزعم ان "سمكة نيسان" (ابريل) في فرنسا ترتقي
الى لويس الثالث عشر ملك الفرنسيين، وكان قد سجن احد
الامراء في مدينة نانسي، فافلت الامير من سجنه وقطع سابحاً
مثل سمكة. وعند نجاته من "شبكة صياده" ارسل الى الملك

سمكة مع رسالة مؤرخة في اول نيسان (ابريل)، ويقول فيها
"انه تخلص من يده تخلص السمكة من الصنارة".

ولعل ابرز كذبة سمجة هي من ابتداع طلاب الطب في
فرنسا. ففي اول نيسان (ابريل) من العام ١٨٨٥، دعا طلاب
كلية الطب رفاقهم الى مأدبة كبرى، وفي نهايتها اعلن احد
اصحاب الدعوة الصمت، وقال: رفاقي الاعزاء لقد قطعت اللحم
الذي اكلتموه من الجثث التي كنتم تشرحونها...

وهناك كذبة تشبهها، قام بها اميركي حين اعلن في احدى
صحف نيويورك عن حاجته الى بعض الدولارات وعين عنوانه،
فتلقى الآف الدولارات، ثم انهم بالاحتيال، ولم تتم محاكمته
باعتبار انه لم يعد بشيء.

والطريف في الامر ان كذبة نيسان (ابريل) لم يسلم منها حتى
رؤساء الدول وكبار الشخصيات في العالم.
في اول نيسان (ابريل) من العام ١٩٦٢، نشرت الصحف
العالمية الخبر التالي:

"... عزلوا خروتشوف من منصبه. وقد افاق اهالي موسكو في
ساعة مبكرة على رنين اجراس الهاتف تحمل نبأ عزل
خروتشوف، وإحالة الى المحكمة".

وكان المراسلون الاجانب من ضمن المستيقظين على النبأ
نفسه، فاسرعوا على الفور الى دائرة البرقيات، ليعثوا بالخبر
الى الوكالات التي يمثلونها.

لم تذهب البرقيات الى الوكالات، وانما الى قصر الكرملين
الذي اهتز للخبر وسارع الى نفيه فوراً، قبل ان يصدق
خروتشوف ويهرب من موسكو.

ولكن خروتشوف كان ابعد نظراً، فقد قال وهو يسمع الخبر:

"ان الذي اطلق كذبة نيسان (ابريل) هذه السنة، يشكو على ما يبدو من البطالة".

ولكن الذي اطلق كذبة نيسان (ابريل) العام ١٩٦٢، لم يكن مثمما قال خروثشوف، وانما كان يستشف حجب الغيب، وينظر الى المستقبل، فبعد هذا الحادث يستين اقل خروثشوف من منصبه.

بريطانيا وتقاليد شرب الشاي

بالاضافة الى شهرتهم في تصنيع الشاي والاتجار به، فان الانكليز يعدون اكثر الناس استهلاكاً لهذه المادة. وتعود تجارة الشاي في بريطانيا الى ثلاثة قرون ومنذ ذلك الوقت والتقليد الانكليزي يلزم بتناول الشاي في وقت محدد وبطريقة تقليدية. خلال العام ١٨٣٠ اصبحت مدينة لندن مركزاً رئيسياً لتجارة الشاي، وتأسست هيئة مبيعات الشاي بالمزاد في العام ١٨٢٤ في قلب حي السيتي، اي لندن القديمة، وبقيت هناك حتى العام ١٩٧١ حين تم نقلها الى بيت السر جون ليون.

ان سوق البيع بالمزاد لمادة الشاي في لندن هي الاكبر في العالم، مع العلم ان مزادات اخرى كبيرة تقام في اسواق الدول المنتجة، كاسواق كالكوتا في الهند وفي كولومبو في سرى لانكا، وتقام مزادات اخرى في كينيا وملاوي وبنغلادش وجاكرتا.

وتعد بريطانيا اكبر بلد مستورد للشاي، اذ انها تبتاع كميات تفوق ما تبتاعه قارة اوروبا والولايات المتحدة الاميركية وكندا مجتمعة. وتبلغ نسبة تناول الشاي ٥٠ بالمئة بين جميع السوائل، و ٧٠ بالمئة من المشروبات الساخنة المستهلكة في طول البلاد وعرضها، وتشكل نسبة تناول القهوة ٢٥ بالمئة، والقهوة المحضرة محلياً ٢ بالمئة فقط.

والمعلوم ان معظم الكميات الداخلة الى بريطانيا، تأتي عن طريق البيع بالمزاد، او عن طريق صفقات فردية. ويتم تصدير ما بين ١١ و ١٤ بالمئة من جميع كميات الشاي التي تدخل بريطانيا بعد تصنيعها وتوضييبها.

وبالنظر الى مكانة بريطانيا ومركزية لندن كسوق لجميع اصناف الشاي، فان الاسعار تتأثر الى حد بعيد بما يتقرر فيها، ويأتي الشاي اساساً من الهند وبنغلادش وسري لانكا وماليزيا وتايوان والصين واليابان وفيتنام وايران وتركيا وكينيا الجديدة وغيينيا واوغندا وتنزانيا وملاوي وموريشوس وموزامبيق والكونغو وزئير ورواندا ويورواندا والارجنتين والبرازيل والاكوادور والبيرو وغيرها من البلدان.

يهتم الشارون بنوعية الاوراق، والكميات والاسعار والطعم ويتوقف اختيار طعم الشاي، على خبرة وتجارب هؤلاء الذين يتذوقون كل نوع منه، وخالطه وتوضييبه، مع حفظ خصائص كل نوع مهما قدم الزمن.

يتميز هذا النفر من الخبراء بحساسية ادواقهم وخبرتهم بحيث يحدد الواحد منهم الحقل الذي جاءت الاوراق منه، والبلد، والوقت الذي يتم فيه القطاف.

وتختلف الوان ورائحة ومذاق اوراق الشاي من موسم الى آخر، ويبقى على الخبراء تطويرها لتناسب الازواق الكثيرة.

تقوم اسواق المبيع بالمزاد في لندن كل يوم اثنين في قاعة المزاد الرائعة في مركز الشاي. ويبدأ الرجل المسؤول عن المزاد بطرح سعر ويزاد عليه بمعدل نصف بنس لكل كيلوغرام واحد، وتكون الكمية المطروحة بحدود ١٠٠ الى ٣٠٠ كيلوغرام. ويتفق صغار السماسرة فيما بينهم لاقتسام هذه

الكمية، وهكذا يتاح للجميع امكانية الحصول على ما يريدون. ومن التقاليد المرعية داخل القاعة الا يرتفع صوت، وان لا تأخذ الحماسة بالحضور، وعادة لا يزيد عددهم عن ٥٠ الى ٦٠ شخصاً، ويتم البيع عن طريق الوعد الذي ينفذ دائماً.

يقول احد باعة المزاد انه يبيع ما معدله مئة كيلوغرام من الشاي في الدقيقة، وانه استطاع بيع ١٢٥٠٠ طن من الشاي في خلال السنوات الاخيرة.

بعد وضع الشاي في اكياس خاصة، لوحظ ان الهدر قد خف كثيراً. وكان مبدأ اختيار الطعم في الماضي يتوقف على ذوق من يتذوقه من خبراء الشركة، غير ان سهولة المواصلات حالياً، اتاحت لهؤلاء، زيارة الاسواق الخارجية والوقوف على ادواق الزبائن.

واكتشف ان الانكليز يفضلون الشاي الحاد واللون الداكن، يشاركونهم الاوستراليون في ذلك، بينما يفضل الالمان الشاي الخفيف، ويتحول الاسكندنافيون من القهوة الى الشاي من دون اضافة الحليب اليه، بل اضافة الليمون الحامض، في حين يتناول ٧٠ بالمئة من الاميركيين الشاي المجلد، اي البارد، ومن الملاحظ ان زبائن الشرق الاوسط يختارون اجود اصناف الشاي.

الخردل: صناعة وقوانين

تعتبر مدينة "ديجون" في فرنسا مدينة الخردل ، لانها صنعتها وتاجرت به منذ اقدم العصور ، اذ استهلك دوق بيرغانديا ، وهي الدولة التي كانت ديجون عاصمتها ، قبل ان تُضم الى فرنسا ، في خلال مأدبة اقامها لابن عمه ملك فرنسا في العام ١٣٣٦ ، كمية كبيرة من الخردل .

لذلك اصدروا القوانين في العام ١٣٩٠ ، والتي تحدد وتنظم صناعته وتفرض ان يصنع من البذور الجيدة والخل والملح من دون اضافة اي شيء آخر .

بسبب اهمية الخردل في حياة ديجون ، انشئ متحف سمي "متحف الخردل" في العام ١٩٨٨ . ويتبين من خلال الوثائق الموجودة في هذا المتحف ان الخردل زرع في البدء في فلسطين وكان رمزاً للخصوبة والنمو السريع . ومن فلسطين انتقلت النبتة الى مصر ، حيث تعرف عليها الاغريق في اثناء حكمهم لمصر ، ونقلوها بدورهم الى فرنسا .

اول من ذكر صلصة الخردل هو المؤرخ الروماني بليني ، معتبراً ان اصل الاسم لاتيني .

يعود الفضل الى اهل ديجون ، في جعلها المركز الاول في

صناعة الخردل، من بين سائر المدن الفرنسية، بسبب قدرتهم على الاستفادة من الفرس المتاحة لهم، اذ وفروا كل ما يلزم لصناعته، باحضارهم الملح من جبال جورا القريبة، وزراعة الخردل في وادي السون، حيث تتوافر الشمس والرطوبة العالية اللازمتين له.

لكن الشهرة التي نالتها مدينة ديجون في صناعة الخردل، يعود الفضل فيها الى احد سكانها ويدعى جان نيفون، الذي استعاض عن الخل في العام ١٧٥٢ بعصير الحامض.

اما عائلة فالوا التي حكمت الدوقية الواقعة وسط فرنسا من العام ١٣٦٤ حتى العام ١٤٧٧، فكانوا من عشاق الصيد وأكل لحوم الطرائد التي يناسبها الخردل، وبلغ من حبهم لخردل ديجون انهم كانوا يصلون كمية منه معهم عند قيامهم بآية رحلة صيد.

سنت القوانين لتنظيم صناعة الخردل، منها أنه لم يكن يسمح للشخص بافتتاح محل لصنع الخردل وبيعه، قبل اكماله فترة تدريب لا تقل عن ثلاث سنوات على يد خبير قديم، وهذا بدوره لا يسمح له بافتتاح اكثر من محل، او تدريب اكثر من شخص واحد في الوقت نفسه.

انتشرت مطاحن الخردل الصغيرة في المنازل في القرن الرابع عشر، وكانت ربة البيت تعدّه ملازجاً عند الحاجة اليه. بعد ذلك ظهر الطحانون المتخصصون، ومن القوانين الطريفة التي سنّها الحكام انذاك، اعطاء مكافأة مميزة لكل طحان اذا سالت دموعه في اثناء الطحن، لاعتقادهم ان ذلك يعني ان طحنه للخردل كان اكثر نعومة من غيره.

بعد تكاثر الخردل في مدينة ديجون، ظهر الباعة

المتجولون، وهذه الظاهرة بقيت مستمرة حتى اوائل هذا القرن، واصدر حكام ديجون قوانين خاصة بنظافة ملابس هؤلاء الباعة.

وللتعرف على حياة وتاريخ حكام مدينة ديجون، لا بد من القيام بجولة على متحف الشمع او زيارة قصرهم الذي يشكل اليوم قلب مدينة ديجون، ويضم مطبخهم الشهير المؤلف من ستة مواقد، بالاضافة الى العديد من الادوات التي يحتاجها الانسان في اثناء طعامه، والتي تكفي لاكثر من مائتي شخص.

في كل عام يقام في ديجون مهرجان لقطاف الخردل في نهاية شهر آب (اغسطس) وتشارك فيه فرق من كل انحاء العالم. ويتضمن الكثير من العادات والتقاليد الطريفة.

الرقص والعادات

احتلّ الرقص في الاونة الاخيرة مكاناً مرموقاً بين كافة الفنون، لا بل اصبح في الطليعة، عشاقه كثر، وبامكان الراقصين تقديم اهم الاعمال الادبية والمسرحية من خلال لوحات فنية جميلة.

بدأ الرقص في العصور البدائية للانسان، فكان احد اشكال التعبير عن المشاعر. ثم ادخل على الاحتفالات والمهرجانات عند الشعوب القديمة. عرفت مصر الفرعونية، وبابل وبلاد الفرس والهند والصين، وكان اليونان يولونه اهتماماً بالغاً. ومن المرجح ان الرقص بدأ قبل الموسيقى من الحركة الفطرية والانفعالات.

وكان الرقص عند اليونان القدماء يعتبر هدية، وينطبق كذلك على المعيار الجمالي للتوافق والقوة. والواقع، انه بمثابة اعداد جيد للتدريبات العسكرية، ونظاماً رياضياً رائعاً.

وكان افلاطون يرى فيه جزءاً لا يتجزأ من التمرينات الرياضية، مثله في ذلك كمثل المصارعة، اذ ان الهدف الاساسي منه، هو المحافظة على صحة الجسم، واكتساب خفة الحركة والمحافظة على الجمال.

ومنذ العصور الاولى من الحضارة الهلينية عرف الرقص مكانة عظيمة، كما تشهد بذلك الاشعار السومرية، كما انه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالشعر والموسيقى، وكان الشعراء يهتمون كثيراً بكل ما يتعلق بالرقص. وقد قدم سوفوكليس المثال العملي على ذلك بنفسه، عندما أدى رقصة توزيعا.

كانت ايقاعات الرقص اليوناني، تفرق على ما يبدو بين نوعين: الرقص الاحتفالي والرقص الرياضي.

اما النوع الثاني، الذي كان يحتل مكانة اكبر، وكان الهدف منه، تنمية القوة البدنية وخفة الحركة للشباب، لاعدادهم للحرب.

وكانت تلك هي كما يبدو، وبصفة خاصة، حالة بيريا الشهيرة، التي عرفت قبل هوميروس، كانت ترقص بمصاحبة الناي على توقيعات خفيفة وحية، لا تزال بعض هذه العناصر موجودة حتى اليوم في رقصات جبال تيساليا ومقدونيا.

وكانت البيريا تعبيراً عن المعركة، تتخلل مراحلها المتعاقبة حركات تمثل الهجوم، والدفاع، وصدمات السلاح، وتنتهي بابتهاج النصر. وكان التعبير عن كل ذلك يتم بخطوات قافزة وجارية، وبحركات التفاضلية وتقهرية، وكما هي الحال في كثير من الرقصات اليونانية، وكانت حركات الايدي، تفصح عن العواطف التي تحرك الراقص، مصحوبة بتعبيرات ايمائية مألوفة. كما كانت بعض الادوات تلعب دوراً هاماً في الرقصات الهلينية وبصفة خاصة الاقنعة. غير ان اليونانيين كانوا يعرفون رقصات اخرى عديدة.

وبعكس المكانة التي كان يحتلها الرقص عند اليونانيين، فانه لم يلق اهتماماً كبيراً في روما القديمة. كان الرومان اولئك

الشعب المحارب، يعتبرون الرقص وسيلة ترفيهية، في المرتبة الثانية بعد الاستعراضات والمنوعات التي كانت تقدم لهم، مثل ألعاب السيرك، السباقات، العروض المسرحية، المباريات الادبية والموسيقية. وللتدليل على ذلك يكفي ان نستعرض رأي شيشرون الذي كان يقول: "ان الرجل الرزين لا يتداني الى الرقص".

وعندما اتضحت الغاية من الرقص، صنف الى: رقص ترفيهي ورقص شعبي، واتخذ ملوك فرنسا وسيلة لاهياء حفلاتهم في القصور وتكريماً لضيوفهم.

في القرن الخامس عشر وضع دومينيكو دا بياسفورا اول كتاب عن التوقيعات الراقصة بعنوان: "فن الحركات والرقص التوقيعي". وبعد فترة قصيرة اهدى ابريو بحثاً في الرقص الى دوق ميلانو، وصف فيه ٥٠ رقصة من تصميمه، وسرعان ما انتشرت الرقصات الجديدة التي اعجب بها الملك فرانسوا الاول وحاول نقلها الى فرنسا، لتتال هناك الاعجاب من الطبقة المثقفة.

اما انكثرتا فعرفت نوعاً آخر من الرقص عرف باسم "القناع"، وهو تعبير جسماني نحو التمثيل اليماني، اكثر من اتجاهاه نحو الرقص المعروف.

العام ١٦٦٠ انشأ لويس الرابع عشر الاكاديمية الملكية للرقص، وكانت اولي الاعمال "انتصار الحب".

بعد ذلك ادخلت تعديلات كثيرة على الطرق الايقاعية، ونظراً لتطور الموسيقى، استطاع الرقص ان يدخل كل المجالات حتى ان معظم الفنانين في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر

خصصوا اكثر اعمالهم لتقديم القطع الموسيقية المناسبة للرقص.

برزت المازوركا، الفالس، التانغو، اضافة الى الرقصات الشعبية التي بقيت محافظة على طابع معين، يتأثر بالتقاليد والعادات الموروثة من العصور الفايبرية.

ومع مطلع القرن الحالي بدأ الرقص يأخذ طريقاً الى الخطوات الثابتة في تاريخه، وقد كثرت المدارس والاتجاهات الفنية التي خلقت موجات غنية عاصفة، اجتاحت اكثر العالم المتعدن.

يوم الوشم

رجال الاطفاء في مدينة طوكيو اليابان، يحتفلون في اليوم الاول من شهر تشرين الاول (اكتوبر) من كل عام بعيد "الوشم" حيث يجددون وعدهم باستمرار هذا التقليد الشعبي، الذي يعود تاريخه الى ايام كانت تعرف طوكيو باسم "بيدو".

في ذلك الوقت كانت منازل "بيدو" مصنوعة من مواد خشبية عرضة للحريق، وكان لرجال الاطفاء الدور الاساسي في حماية الاحياء التي يصل عددها الى ٨٠٨، وتتألف منها المدينة، وعمدوا الى اختيار حيوانات عرفت بالقوة والاندفاع مثل: الاسد، النمر، الديك، النسر، العقاب وغيرها. فوشموها على اجسادهم تشبيها لهذه الرموز، وليتمايزوا عن بقية الناس في المدينة.

لم تقتصر هذه العادة على رجال الاطفاء وحدهم، وسرعان ما انتشرت بين صفوف الناس وراحوا يتخيلون صوراً متعددة الاشكال والالوان لطبعها على اجسامهم، فانطلقت عندئذ هذه العادة الى الفنانين والمفكرين.

اشتهر بهذه العادة استاذ كبير، رفع طريقة الوشم الى مصاف الفن، اذ كان يفرض على الشخص الذي يرغب بتعلم

هذه العادة، ان لا يكرر رسمة نفذها على جسم محب للوشم، بل عليه ان يبتكر رسوماً جديدة، واستطاع هذا الاستاذ ان يطبع على اجسام الناس رسوماً مختلفة لاحتفالات التنجيم، والحيوانات وورق اللعب، ومشاهد الصيد، والاحتفالات، وصور نساء وزهر وزخرفات.

طريقة الوشم هذه، ما لبثت ان انتقلت الى مختلف انحاء العالم، وبالتحديد الى ولاية تكساس في الولايات المتحدة الاميركية.

احد دارسي هذا الفن ويدعى "الن غوفنار" يقول "ان الرسوم اليابانية المعقدة المحفورة على الواح الخشب هي الموضة المسيطرة في موجة الوشم الجديد.

ويضيف: يشهد هذا الفن اليوم شعبية تتعدى اعتبارات العمر والمركز الاجتماعي. وغوفنار (٤٨ سنة) هو من سكان مدينة بوسطن، درس فن الوشم الاميركي مدة ٧ سنوات وانصرف الى الاعداد لنيل الدكتوراه في الفنون والعلوم الانسانية من جامعة تكساس في دالاس.

يعتبر غوفنار، ان ادهاردي، من سان فرانسيسكو هو زعيم حركة الوشم، واليه يعود الفضل في تحوليه الى فن جميل. وتتناول الصور والرسوم التي يقوم هادري بوشمها على الاجسام مشاهد عن محاربي الساموراي والتنين.

جاء في دراسة نشرت في الولايات المتحدة الاميركية: ان الوشم هو من الفنون البدائية، وليس فناً جديداً معاصراً، على الرغم من التطور التقني الذي ادخل اليه، ويرجع تاريخه الى عصور ما قبل التاريخ، ولا تزال توجد في بعض متاحف

اميركا واوروبا كل وسائل الوشم التي كانت تستعملها الشعوب البدائية.

اما علاقة غوفنار بالوشم فقد بدأت في العام ١٩٧٢، في اثناء دراسته في جامعة اوهايو، وعلى اثر زيارته لمحل في قلب مدينة كولامبوس، صاحبه "ليونارد سانت كلير" تخصص بهذا الفن.

وسرعان ما نشأت بينهما صداقة متينة، وراح ليونارد الملقب "ستوني" يلقيه مبادئ هذا الفن.

في وقت لاحق، كتب "الن غوفنار" دراسة عن ستوني للجامعة، ما لبث ان حولها الى كتاب بعنوان: "ستوني يعرفها: الحياة كفنان وشم". وطبعه على مطبعة كنتاكي. الا ان ستوني لم يره، اذ توفي قبل صدوره عن ٦٧ سنة، بعد ان قضى ١٥ سنة من عمره في ممارسة فن الوشم.

ويقول غوفنار ان ما جذبته الى الوشم هو اكتشافه ان هذا الفن لم يكن كما وصفه الناس، وانه صمم على اظهاره كفن شعبي، وكأحد الفنون الجميلة على الرغم من المقالات السيئة والدراسات التي كتبت عنه.

حصل غوفنار على درجة الماجستير من جامعة تكساس العام ١٩٧٥، ثم انصرف الى البحث عن فنان الوشم في الولايات المتحدة الاميركية، فزار ثلاثين محترفاً للوشم في ١٧ مدينة، وكتب مقالات عديدة عنهم.

يقول غوفنار ان الرسوم الوشمية الجديدة مختلفة اختلافاً كبيراً عن تلك التي كان يرسمها ستوني، وان الطابع الغالب عليها حالياً هو الرسوم اليابانية المنحوتة على الخشب، والتي تعود الى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

يضيف: للوشم في اليابان مميزات مختلفة تماماً... فالرسوم تركز على التناسق والاستمرارية والتطابق مع انحناءات الجسم. أما الرسوم الغربية ففي غالبيتها مجموعة من الرسوم المضمومة الى بعضها بعضاً بصورة فوضوية ينقصها الموضوع الرئيس الموحد.

تبرعت المؤسسة الوطنية للفنون بتكاليف اعداد فيلم وثائقي عن "مدرسة الوشم القديمة". والف غوفنار ايضاً رواية بعنوان "الموشومون". كما انه عمل على اعداد فيلمين عن فن الوشم ولديه مشاريع اخرى لاجراء ابحاث عن وضع الوشم في الثقافة والمعاني التي يحملها.

تجدر الإشارة الى ان غوفنار لا يحمل اي وشم على جسمه، ولكنه يقول ان ذلك لا يعني انه سيبقى الى الابد كذلك "ليس لدي اي اعتراض على وشمي، وعندما اقرر رسم جسمي بالوشم، اريد ان اؤكد من ان ما سأحصل عليه سيكون جميلاً ويحمل المعاني الكثيرة".

قديماً كان الملك ادوار السابع يحمل على زنده الايمن وشماً يمثل تنيناً ومرساة. أما الملك جورج الخامس، فحمل وشماً يمثل مركباً شراعياً، والملك جورج السادس حمل وشماً يمثل صورة مرساة كزند جده. ويعتبر المؤرخون ان المجتمع البريطاني الراقى كان ينظر الى الوشم نظرة اكبار واعجاب.

اعتقد البعض ان الوشم كان من التقاليد البريطانية اذ كان الملوك والعظماء يتزينون به، مع العلم ان البريطانيين اقتبسوا هذه العادة من اسوج. ويقال ان الملك برنادون حمل وشمين اثنين: الموت للطغاة على زنده الايمن، والاخوة على زنده الايسر.

ومن المشاهير الموشومين في العالم: ستالين، ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني، الرئيس الاميركي الراحل جون كينيدي وملك الدانمارك كريستيان.

أما في روسيا، فلم يعرف الوشم إلا من خلال القيصرية، فالقيصرية كاترين كانت تحمل وشماً هو آية فنية. أما القيصر نقولا الثاني، فقد وشم صدره في صباه بصورة سيف ولما تزوج من الكسندرا التي عرفت بقسوتها وجبروتها، حاول التخلص من هذا الوشم فلم يستطع.

المحللون النفسيون حللوا ظاهرة الوشم منذ القديم حتى اليوم، واستطاعوا التأكيد من خلال دراساتهم ان معظم الذين يقدمون على وشم اجسامهم، انما يفعلون ذلك في لحظات اضطراب وقلق او حب التقليد.

لكن هذا الفن يسير في طريق الزوال، كما يقول الخبير الفرنسي جاك ديلارد، ويعزو ذلك الى انخفاض نسبة الهواة في مختلف انحاء العالم

المصادر والمراجع:

مجلة الشرق الاوسط.

مجلة سيدتي.

العربي: سليمان مظهر.

الاسبوع العربي: محمد سعيد الجنيدى.

ملحق النهار: فؤاد شاكر.

مجلة صدى الارز: جوزف ابي ضاهر.

مجلة بشاريا.

٣	- تمهيد
٧	الفصل الاول: عادات القبائل
٧	- قبيلة البوندو
٩	- قبائل الدوغون
١٠	- قبائل البيغمي
١٢	- قبائل الشمال التايلندي
١٤	- قبائل الميكي
١٦	- قبائل الباربا
١٩	- قبيلة التاساڊاي
٣٠	- قبيلة كاراما جونغ
٣١	- قبائل البلوش
٣٣	الفصل الثاني: العجرج... وعاداتهم
٣٩	الفصل الثالث: رقصة العظام في مدغشقر
٤٣	الفصل الرابع: سيرى لانكا والضررس العجيب
٤٧	الفصل الخامس: اريتريا... وعادات عربية
٥١	الفصل السادس: كوريا الجنوبية ورقصة المراه
٥٥	الفصل السابع: الهنود الحمر... والخوف من الانقراض
٧٥	الفصل الثامن: يوم البحر في جزر اولاند
٨١	الفصل التاسع: تاوان بلد الاعياد والمهرجانات
٨٧	الفصل العاشر: كذبة اول نيسان بين فرنسا وبريطانيا
٩٣	الفصل الحادي عشر: بريطانيا وتقاليد شرب الشاي
٩٧	الفصل الثاني عشر: الخردل : صناعة وقوانين
١٠١	الفصل الثالث عشر: الرقص والعادات
١٠٥	الفصل الرابع عشر: يوم الوشم

لكل شعب من شعوب الارض تقاليده وعاداته
تميزه عن باقي غيره من الشعوب، وكثيراً ما
تكون هذه العادات ولادة حكايات شعبية، او
اساطير يتناقلها الاحفاد عن الاجداد، ويتمسكون
بها خوفاً من ضياعها في مآهات التقدم
والحضارة.



التوزيع :

مكتبة الشوافر

الرياض العليا - شارع الثلاثين

هاتف : ٤٦٢٢٦٦٧ / ٤٦٢٢٦٦٣